

الذِّيارُ التَّصَرُّفُ

الاسم

بقلم

عبد بنات

مقدمة

الغريب انه ليس في المصنفات التي وضعها كُتَّاب العرب ، وبلغتنا
اسماؤها ، تاريخ لاحد النصارى في ذكر البيع والديارات ووصفها ،
في الاسلام . وغاية ما انتهى اليها في الكلام على طائفة منها المجموع
السذي عني بكتابته الشيخ المؤتمن سعد الله بن جرجس بن مسعود ، من اقباط
القرن السادس للهجرة . وهو في مجلدين . طبع احدهما منحولاً للشيخ ابي صالح
الارمني ، مع ترجمته الى الانكليزية ، عن الاصل المحفوظ في خزانة باريس .^(١)
وبقي الآخر مخطوطاً مخبراً في حوزة احد كتبة القبط . ورثه من بعض انسابه
من رجال الكنيسة وهو شديد الضنّ به على العلم والعلماء . لا يطيب قلباً بنشره .
ولكن الاديار المذكورة في هذين المجلدين هي برض من عدّ مما كان قديماً منها
في الديار الاسلامية . وحسبك ان مدينة الرها وحدها كان فيها وحولها ، فيما
رواه الاصطخري ، « زيادة على ثلاثمائة دير وصوامع كثيرة . »^(٢) وابلغها ابن
الفقيه الى « ثلاثمائة وستين ديراً . »^(٣) على بعض مبالغة دون شك في الروايتين .
فما ظنك بما كان منها في سائر البلدان والجيال والقفار .
ومما فات الشيخ سعد الله التنبيه له انه لم يتفق له مرة ، ولو عرضاً ، ان

(١) B. T. A. Evetts, *The Churches, monasteries of Egypt*. Oxford, 1895

(٢) مسالك المالك ، ص ٧٦

(٣) كتاب البلدان ، ص ١٣٤

يصف كيفية بناء دير واحد من الاديار التي عددها ؛ او ان يشير الى شيء من خططها ورسومها ، وهندسة قلايتها ومعابدها ومرافقها ؛ وما كان يحف بها ويُضاف اليها من البساتين ، والمعاصر ، والحانات ، ودور الضيافة ، والمتنزهات ، واغفل ايضاً وصف كل ما كان واقفاً عليه في زمانه من احوال الرهبان ؛ وما كان شائعاً معروفاً من طرائق معيشتهم وسُنَنهم ومصطلحاتهم في اللباس والزي ؛ واساليب كل فئة منهم في الزهد والانقطاع ، والانفراد والاجتماع . شأن كل المؤرخين في الشرق في قلة التوسع والاستيفاء ، وعدم الاكتراث والاحتفال بمثل هذه الشروح والادوصاف الخطيرة . فلا ندري اليوم كيف كانت حياة الاديار النصرانية بعد الهجرة . ولا نعلم من امرها سوى ما شاء فريق من كتبة الاسلام حكايته لنا من مجالس اللهو والقصف التي كانت تُعقد في ملحقاتها وحاناتها . وما كان يرتكب فيها من المنكرات حسباً نظمه في وصفها بعض الشعراء والخلفاء المتطرحين فيها ، على رضى او كراهة من اهلها . وهذه الحكايات والادوصاف هي اليوم المصدر الاوحد والمرجع للفرد الباحث عندنا المتشوف الى استطلاع شيء من انباء الرهبان والمتبتلين ؛ ومعرفة ما آلت اليه خلواتهم ومتعبداتهم من الابتذال والانتهاك في عهد الخلفاء والملوك والولاة ، منذ القرن السابع للميلاد الى انقراض الخلافة العباسية في القرن السادس عشر .

وقد ألف غير واحد من الائمة وفحول الشعراء في هذه الديارات والحانات . وجمعوا الاشعار المقولة فيها . وما كان يحدث فيها ويجري بين جدرانها من شجون ومجون ، وزهد وعبادة . ووصفوا بعض مواقعها وخصائصها ؛ وما كان يرتفع منها من الخمور ، والاثار ، والنباتات ، والتجارات ؛ ويحمل اليها من النذور ؛ ويُستشفى فيها من الادواء والعاهات . ونَبَّهوا على ما كان مشتهراً خاصة بنزول الملوك والكبراء فيها ؛ وانقطاع بعض الشعراء والمجان اليها . وقد بحثنا عنها طويلاً في تضايف الكتب المصنفة في الفهارس والتراجم والوفيات . ووقفنا منها على تعداد ما يأتي :

١ كتاب الحيرة ونسمة البيع والديارات لهشام بن محمد الكلبي (١) . وهو مفقود .

والأرجح انه هو نفس المصنف المشار اليه في كتاب مسالك الابصار للشهاب العمري في الكلام على دير الاسكون (٢١١:١)

٢ كتاب الديارات لابي الفرج الاصبهاني ، صاحب كتاب الاغاني (١). نُكِب الادب بخسارته . وبقيت تقول منه في معجم البلدان لياقوت ، ومعجم ما استعجم المبكري ، ومسالك الابصار للعمري ، وروايات شتى عنه في كتب الادب.

٣ كتاب الديرة للسري الرفاء الموصلي الشاعر، المتوفى في بغداد سنة ٣٦٢ للهجرة (٢) (٩٧٢/٣ م). وقد ضاع بين سمع الارض وبصرها . ولا نعلم لاحد رواية عنه .

٤ كتاب الديارات لابي الحسن علي بن محمد الشافعي الكاتب ، المتوفى سنة ٣٨٨ (٩٩٨ م) ذكر فيه كل دير بالعراق والموصل والجزيرة والشام والديارات المصرية . وهو على اسلوب الديارات للخالديين واي الفرج الاصبهاني (٣) . كان منه نسخة ثمينة مزودة بـ *illustrée* وقف عليها شمس الدين محمد بن طولون الدمشقي في القرن العاشر للهجرة (٤) . ولا يخفى ما فاتنا بفقدائها من الفائدة الجليلة لا يمكن دلالة ما فيها من الصور والاشكال على رسوم الديارات وضروب ابنتها . وتوجد من هذا الكتاب نسخة مخرومة في خزانة برلين . سقط منها جانب من ديارات العراق ، وكل ديارات الشام ، ما خلا دير البخت . وفي دار الكتب المصرية نسخة عنها خطية قليلة الضبط . واخرى مصورة في الخزانة التيمورية . وعنها صورة في خزانتنا . وفيها كل طريف ومستمتع . وقد توسع كثيراً في اخبار الشعراء والامراء الذين نظموا في الديارات واتصلوا بها . وذكر بعض من زارها من الخلفاء . وهو دخر للمؤرخ وغنية لكل اديب ، وحقيق بالخدمة والطبع .

٥ كتاب الديارات للاخوين الشاعرين الخالديين (٥) ابي بكر واي عثمان المتوفيين في اواخر القرن الرابع للهجرة . وقد اتهمهما السري كثيراً بالإغارة على اشعاره وبنات افكاره . فلملحاً قلدها ايضاً او زاحماه في هذا الباب . وفي ياقوت والعمري مأخذ عنها .

٦ كتاب الديارات لابي الحسن علي بن محمد المدوي السُـمَيْسَاطِي . قال محمد بن اسحق النديم : « وهو يحيا في عصرنا في سنة ٣٧٢ (٩٨٧/٨ م) له كتاب الديارات كبير . (٦) وفي جزء من تاريخ بغداد لابن النجار « انه كان شاعراً بمدح الملوك . اصله من الموصل . سكن

(١) وفيات الاعيان لابن خلكان ، ص ٤٢٦

(٢) ارشاد الارب لياقوت ٢: ٢٢٧

(٣) وفيات الاعيان ، ص ٤٢٦

(٤) ذخائر القصر في تراجم نبلاء العصر لابن طولون الحنفي ، رقم ١٤٢٢ من الخزانة التيمورية .

(٥) ارشاد الارب لياقوت ٢: ٢٥٢

(٦) ارشاد الارب ٥: ٢٧٥-٢٧٦

بغداد ودخل واسط في سنة أربع وتسعين وثلاثمائة (١٣٠٣/٤ م) « ١ » وفي بنية الطلب في تاريخ حلب لابن العديم عدة مطالعات فيه وروايات عنه لم نجدها في غيره من كتب الديارات فلا شك انه كان اوسع اشتمالاً واغزر فوائد منها كلها . ولذلك وصفه صاحب الفهرست الكبير . ولعل هذا التوسع ، مع قلّة اقبال النساخ على كتابة غير مصنّفات الحديث واللغة ، كان سبب اهماله وندرة نسخه . فعزّ طلابها وصارت الى من لا يعرف لها قدرًا ولا قيمة وتقطعت اوراقها وبيعت على المعنار والاسكافي ،

فهي إمّا مزود للعفا قير ، وإما بطائن للخفافير

٧ كتاب الدريّة لمحمد بن الحسن بن رمضان النحوي (٢) . ويظهر انه هو الذي اشار اليه ياقوت في استدراكه عليه ما ذكره عن دير الرصافة .

٨ اوصاف الاديار في معجم البلدان لياقوت الرومي (٢: ٦٢٩-٧١٠ من طبعة ليبسيك) نقل مرارًا كثيرًا منها بالحرف الواحد عن مقدمه من مؤلفي الديارات . وسمّى منهم ابا الفرج الاصهاني والخالديين . وفيها ، على ما يشوبها من اغلاط النسخ والطبع ، غناء وعزاء عما تلف او فات مما كان باقياً في زمانه ولم ينته اليها من كتب الديارات .

٩ نموت ثمانية وثلاثين ديرًا من الاديار اوردها البكري ببعض اختصار في كتابه معجم ما استمع طبعه واستنقل سنة ١٨٧٧ (١: ٢٥٩-٢٨١) ولم يأت فيها بغريب . ولم يسم عن نقل عنه غير ابي الفرج الاصهاني من مؤلفي كتب الديارات .

١٠ باب الديارات في كتاب مسالك الابصار وممالك الامصار لشهاب الدين العمري في المجلد الاول منه المطبوع بصر سنة ١٩٣٤ (ص ٢٥٤-٢٨٦) وفي طبع الماتن بعض اوهام ونحريقات استدر كناها في مقالة لنا طويلة نشرتها مجلة لغة العرب في بغداد (٦ [١٩٣٨] ٣٢٢-٣٤٢) وقد نقل المؤلف كثيرًا عن ابي الفرج الاصهاني ، والخالدي ، والسُميساطي ، وربما نقل عن الخالدي الصفحة والصفحتين والثلاث . وفيه زيادات على ياقوت تبلغ نيفًا وعشرين ديرًا .

١١ مجموع في خزانه بريثش موزيوم في لوندرة رقم Add. 19408 بعنوان « الدرّ الملتقط من كل بحر وسفط » لمحمد بن علي بن محمود الكاتب الدمشقي . أنجزه في شهر سنة ثلاث وخمسين وسبع مائة (١٣٥٢ م) وقال في مقدمته : « بؤبته سبعة ابواب من ثلثين بابًا . واودعته حكمًا وادابًا » ولكن لم نجد فيه الا بعض الابواب فقط . ومنها قسم ناقص . وفيه تقديم وتأخير . وفي اسماء الابواب بعض التشويش والاختلاط منها الباب السابع والعشرون ذكر عنوانه « البدور المسفرة في نعت الكنائس والاديرة » وليس به . ولكن في الصفحات ١١٧-١٢٤ اوصاف لثلاثة عشر من الاديار . اولها دير الروم وآخرها دير مرّان بظاهر دمشق ، تلتقطها جامعها من كتب شتى . وفي سياقها نقص واقتضاب . ويظهر انه لم يستعملها من الخالديين

(١) جزء من تاريخ بغداد لابن النجار ، رقم ٢١٣١ خزانه باريس ، ص ٣٤

(٢) ارشاد الاريب ٤٩٥:٦

ولا من الشابثي . ولا يبعد ان تكون طائفة منها مأخوذة من ديارات ابي الفرج الاصمغاني ، فهي ، على كل حال ، تصلح للنشر . واقتصر ، في كلامه على دير مرّان ، على تكرار ما جاء عنه في كتاب بدائع البدائع لابن ظافر من حكاية الشاعر الببغاء التي تقدمت للثعالبي في يتيسته . وفي مقابلة هذه الفصول على ما جاء في مجمع ياقوت فضل وزيادة في البيان والتعريف . وهذه اسماء الاديرة الموصوفة فيها :

دير الروم (ص ١١٧-١١٩) نقل فيه حكاية مدرك بن علي الشيباني ومزدوجته في عمرو بن يوحنا النسطوري .

دير الزندورد . والثعالب (ص ١١٩)

دير سبالو . والثعالب (مكرر) . دير الجاثليق (ص ١٢٠)

دير اشموني (ص ١٢٠-١٢١)

دير جرجس (ص ١٢١)

دير العذارى (ص ١٢١-١٢٢)

دير مرمار (مار ماري) ص ١٢٢

دير هند (ص ١٢٣)

دير يونس . وقوطا . والشياطين (ص ١٢٤)

دير الزعفران (ص ١٢٥)

دير القصير (ص ١٢٥-١٢٦)

دير البركة ويعرف بدير المعافر (ص ١٢٦)

دير باب الفراديس بدمشق . زاره المتوكل على الله الخليفة العباسي (ص ١٢٦-١٢٧)

قصيدة في دير الزعفران السابق الذكر (ص ١٢٨-١٢٩)

خبر عن دير زكسى ظاهر الرقة (ص ١٢٩)

دير مرّان (ص ١٢٩-١٣٤)

« ذكر ديارات النصارى » في كتاب الخطط للمقريزي . اقتصر فيه على تعداد اديرة الديار المصرية ، وتعريف منشئها واحوالها . ونقل عن الشابثي وياقوت الرومي اخبار ما كان مقصوداً منها في الاسلام للقصف واللغو . ولم يأت فيها بزيادة يجدر بالتنويه .

وقد تفرغنا لمطالعة كل ما وقع اليينا من هذه المؤلفات والاوراق وراجعنا ما تهياً معها من كتب الادب ودواوين الشعراء . وقيدنا منها كل ما استشف لنا من خلال الفاظه وايياته بعض التصريح او التلويح الى شي . من اوصاف الاديار والتعريف باحوال المقيمين فيها . وقارنا بين كل منها ، ونهنا على اصولها بغاية الضبط . وربنا اضطررنا مكرهين الى الاستشهاد احياناً ببعض الابيات والاقوال على ما فيها من الوفت والسقط ، بعد ان استبدلنا بنا انتقاد لنا من الفاظها

المنكرة وهذبنا ما استطعنا من حرشتها . ولا حاجة الى القول اننا كنا نودّ تجنب رواية مثلها لو خيّرنا فيها . ولكن الحقيقة ضالة المؤرخ ينشدها في كل واد . ويقدح في البحث عنها وارتياحها بكل زناد . وغاية هذا الكتاب تصوير حالة الديارات في الاسلام كما كانت حقاً بما فيها من حسن او قبح . فلا بد ان يكون كالمراة تصف كل وجه بمثاله . ورائد الحق ، كما قيل ، لا يكذب اهله .

— وقد اقتصرنا في كل ما تناولناه من المباحث والفصول على شرح ما تمثل لنا من دلائل الآثار الاسلامية وحدها كما نبهنا عليه في العنوان . ولذلك لا يجد الناظر في هذه الصفحات إلا جانباً فقط من تاريخ المعاهد النصرانية بعد الهجرة الى سقوط دولة المماليك في القرن السادس عشر ، كما تمثلت لنا في الاصول التي درسناها . وقد استعنا بانوار هذه الآثار الضئيلة لإضاءة بعض الظلمات المكتنفة ماضي الديارات في الاسلام ، على غير اهتداء . بمثال سابق ، او احتذاء . لاحد ممن تقدمنا من الكتبة والمؤرخين . ونرجو ان نكون ، في كل ما حاولنا جلأه من غوامض العاديات المسيحية في العراق ومصر والشام ، قد رزقنا فيه حظ المقاربة في الحكم . وكُفينا بعون الله وتوفيقه شطط الخطأ والوهم .

الدير والعُمر

أكثر ما كانت تكون الأديار في ضواحي المدن بين الرياض والحدائق . وفي قم الجبال والروابي المطلّة على الأودية والسهول الفسيحة . وفي المواضع المنقطعة عن الناس . ولذلك قال ياقوت في تعريفها : « الدير بيت يتعبد فيه الرهبان . ولا يكاد يكون في مصر الأعظم . إنما يكون في الصحارى ورؤوس الجبال . فإن كان في مصر كان كنيسة أو بيعة . »^(١) ولا يخفى ما في هذا الاستدراك الأخير من الخطأ والقصور . واصوب منه قول المقرئ « الدير عند النصارى يختص بالنسك المقيمين به . والكنيسة مجتمع عامتهم للصلاة . »^(٢)

وفي الشعر اشارات الى الأديار القديمة القائمة فوق الهضاب والقلل ، وفي سفوح الأطواد وذرى المستشرفات . ولربيع بن مقروم الضبي في وصف إحدى الحسان :
لواها عرضت لاشمط راهب ، في رأس مشرفة الذرى متبتل ؛
جآر ساعات النيام لربه حتى تخدر لحمه ، متشمعل ،
أصبأ لبهجتها وحسن حديثها ، ولهم من ناقوسه بتزل . (٣)

ومن الديارات التي اشتهرت بعلاوها وارتفاعها وسميت لذلك به دير بالموصل في أعلى جبل مطلّ على دجلة . كان يضرب به المثل في رقة الهواء وحسن المُستشرف . وقيل له لهذا السبب الدير الأعلى . « وله درجة منقورة في الجبل تفضي الى دجلة نحو المائة مرقة . وعليها يستقى الماء من دجلة . »^(٤)

واحسن وصف لحفظ لهذه الأديار المناطقة السحاب قول الشهاب العمري
الدمشقي في دير السيق ، قبلي البيت المقدس :

أرى حسن دير السيق يزداد ، كلما نظرت اليه والفضاء به نضر ،
بنوه على نجد على الفور مشرف ، كنتخت ملك تحته بسط خضر ،
واشرق في سود الغمام ، كأغنا تشقق ليلاً عن جلايبه الفجر ،

(١) معجم البلدان ، طبعة أوربة ، ٦٣٩ : ٢

(٢) الخطط ، مطبعة النيل ، ٤٠٩ : ٣

(٣) الأغاني ، مطبعة بولاق ، ٩٢ : ١٩

(٤) مسالك الأبصار للعمري ٢٤٠ : ١ - ٢٤١

وقام على طود عليّ ، كأنما مصايحه، تحت الدجى، الانجم الزهر .
وزُفّت اليه الشمس من جنب خدرها ، وناغاه جنح الليل في أفق البدر ؛
وألفت اليه الريح فضل عناخا ، واحنى عليها لا تُبَلّ له عذر .
ولو كان كالنسرّين ، هان ارتقاؤه ؛ ولكنه قد حُطّ من دونه النسر ،
علا نهر ربحا ، والمجرة فوقه ، فن فوقه نهر ومن تحته نهر . (١)

ومن اغرب ما جاء في تفسير كلمة الدير قول ابن سيده في المحكم
«الدير خان النصارى» .^(٢) وقد فاته انه كان ايضاً للمسلمين منذ عهد الخلفاء
الراشدين :

كالخان تنقله وترحل غادياً ويجلّ بمدك فيه من لا تعلم
ويقال للراهب الساكن في الدير المنتسب اليه «ديّار وديراني» .^(٣) وللراغبة
ديرية وديرانية . قال احد بني تغلب في خبر دير العذارى فيما زعموا «خَلَوْنَا
بعشرين ديرية» .^(٤) وقال اسحق الموصلي : «دخلت دير القاسم اطوف فيه . فرأيت
ديرانية حين نهد ثديها . عليها المسوح . ما رأيت احسن من وجهها وجسمها» .^(٥)
وللعمرى في الدير الابيض بمصر :

وبالدير ديرانية برزت لنا فتمّ لنا فيها حديث واسمار (٦)
ومن جموع الدير التي لم ترد في معاجم اللغة الديرة . ومنه كتاب الديرة
للعمري الرفاء . ومثله لمحمد بن رمضان النحوي . وقد استجاز حسام الدين الحارثي
جمعه على ديور في قوله :

واستجّلها عذراء مشمولة ، أم الرهايين وبنت الديور (٧)
ويستنى الدير ايضاً العُمر وجمعه اعمار . قال الحسن بن هانئ ، وقيل انه
للحميد بن الضحاك :

(١) مسالك الابصار للعمري ١ : ٢٤٠-٢٤١

(٢) لسان العرب ٥ : ٢٦٧

(٣) اساس البلاغة ١ : ٢٩١

(٤) مسالك الابصار ١ : ٢٦٠

(٥) مسالك الابصار ١ : ٢٦٩

(٦) مسالك الابصار ١ : ٢٨٢

(٧) حديفة الافراح لإزالة الاتراح للشرواني ، ص ١٤٩

آذنك الناقوس بالفجر وغرد الراهب بالعمر (١)

وللمخالدي في دير مار ميخايل باعلى الموصل :

يا صاحبي ، هو العمر الذي جمعت فيه المني فاغدوا بالدير او روحا (٢)

وقد اشتهر بهذه التسمية خصوصاً عمر كسكر او واسط . وعمر الزعفران بنصيين . وعمر احويشا باسعد من ديار بكر . وعمر مار يونان بالانبار . وعمر الزرنوق على فرسخين من جزيرة ابن عمر . والى جانبه دير آخر يعرف بالعمر الصغير . وعمر نصر بسامراً . وفيه يقول الحسين بن الضحاك :

يا عمر نصر ، لقد هيجت ساكنة هاجت بلابل صبّ بعد إقصار (٣)

ويقال لصاحبه عمّار . وفي ديوان ابي نواس :

إذا الندامى ارادوا ، ما باعهم نخار
حمرآء فيها اصفرار ، وعندم عمّار (٤)

وفي تاج العروس : « العمر بالضم المسجد والبيعة والكنيسة . سميت باسم المصدر لانه يُعمر فيها اي يعبد . » (٥) وقد بحثنا كثيراً فلم نعثر على شاهد واحد يثبت استعمال العمر بمعنى المسجد . ولا ندري ما الفرق في هذا التحديد بين البيعة والكنيسة ، إلا اذا اراد ان يعني بالكنيسة معبد اليهود . وعلى ذلك يكون ، على رأيه ، معنى العمر بيت العبادة بالاطلاق لاهل الكتاب على السواء . وليس في اقوال الكتاب والشعرآء قديماً وحديثاً ما يؤيده . قال ياقوت في تفسير العمر :

« ذكر ابو حنيفة الدينوري في كتاب النبات ان العمر الذي للنصارى افا سمي بذلك لان العمر في لغة العرب نوع من النخل . وهو المعروف بالسكر خاصة . وكان النصارى بالعراق يبنون ديرتهم عنده فسمي الدير به . وهذا قول لا ارتضيه . لان العمر قد يكون في مواضع لا نخل بها البتة كنجو نصيين والجزيرة وغيرهما . والذي عندي فيه انه من قولهم عمرت ربي اي عبدته . وفلان عامر لربه اي عابد وترك فلاناً يعمر ربه اي يعبد . فيجوز ان يكون

(١) كتاب الديارات للشابثي ، ص ١١٢-١١٣

(٢) معجم البلدان ٢ : ٦٩٣ (٣) معجم البلدان ٣ : ٧٢٥

(٤) ديوانه ، رواية الاصبهاني . باريس رقم ٤٨٣٠ ، ص ٤٢٥

(٥) تاج العروس ٣ : ٤٢٠

الموضع الذي يُتَعَبَّد فيه يسمى العمر . ويجوز ان يكون مأخوذاً من الاعمار
والعمرة وهي الزيارة . وان يراد انه الموضع الذي يُزار . ويقال : جاءنا فلان معتمراً
اي زائراً . ومنه قوله : وراكبٌ جاء من تليث معتمر^(١) . ويقال : عمرت ربي
وحججته اي خدمته . فيجوز ان يكون العمر الموضع الذي يخدم فيه الرب .^(٢)
وفي مراصد الاطلاع ان الدير يسمى عمراً اذا كان مجاوراً للاماكن المعصورة
وهو قوله : « ما كان من مواضع المتعبدات التي فيها مساكن الرهبان بقرب
العران فانه يسمى العمر »^(٣)

وفي هذه الاقوال كلها ما لا يخفى من التعمل والتحكم كدأب اكثر
ارباب اللغة والمفسرين في انكار اعجمية كل ما يمر بهم من الالفاظ الدخيلة .
واحتياهم لاستنباط اصل لها عربي ، ولو بطريق التكلف والتسؤل والشعوذة .
والصحيح ان الكلمة من اصل ارامي كَحَمْدُا بمعنى البيت والمثل .

(١) هذا عجز بيت لاعنى باعلة ، صدره :

فجاشت النفس لما جاء جميعهم

(٢) معجم البلدان ٣ : ٧٢٤ .

(٣) مراصد الاطلاع ١ : ٤٣١

تخطيط الاديار

وتقدير ابنتها وزينتها

لم يتفق لاحد من الكتبة والمؤرخين الإلماع الى شيء من اوصاف ابنية
الديارات ، وتقدير مساكنها وملحقاتها . فلا نعرف منها سوى انها كانت تشتمل ،
فيما عدا الكنيسة والهياكل ، على القلالي ، وبيوت المائدة ، والمخادع
للمستودعات ، ودور الضيافة وما يلحق بها ويضاف اليها من الصهاريج ،
والحدائق ، والبساتين ، والحانات . ولا شك ان رسومها وخططها كانت تختلف
باختلاف الامصار والسكان . وربما اقتعدت احياناً غارب الجبال ، ونُشرت في الصخر
الاصم . واعجب ما عرف منها دير متى شرقي الموصل « واكثر بيوته منقورة في
الصخر . وفيه نحو مائة راهب لا يأكلون الطعام الا جميعاً في بيت الشتاء او بيت
الصيف . وهما منقوران في صخرة . كل بيت منهما يسع جميع الرهبان . وفي كل
بيت عشرون مائدة منقورة في الصخر . وفي ظهر كل واحدة منهن قبالة^(١) برفوف
وباب يغلق عليها . وفي كل قبالة آلة المائدة التي تقابلها من غضارة وطوفرية
وسُكَّرَجَة .^(٢) لا تختلط آلة هذه بآلة هذه . ولرأس ديرهم مائدة لطيفة على دكان
لطيف في صدر البيت يجلس عليها وحده . وجميعها حجر ملصق بالارض . وهذا
عجيب ان يكون بيت واحد يسع مائة رجل . وهو وموائده حجر واحد .^(٣)
وكان لهذا الدير « عدة ابواب مفرطة في الكبر . وكلها من حديد مُصَمَّت . وبه
صهريج عظيم يجتمع فيه ماء المطر . عمقه اثنا عشر ذراعاً . لكل شهر ذراع من

(١) لم ترد هذه اللفظة في معاجم اللغة ولا في تكملة دوزي . ويُراد بها هنا بيت صغير
كالخزانة يكون في جُدُر المنازل . وهو المعروف اليوم عند العامة بالخرستان . وفي كتاب آثار

البلاد للقريني في كلامه على دير متى لفظة « بويت » (كذا) تصغير بيت . في موضع «قبالة» .
(٢) الطوفرية نوع من الصحاف . ويقال احياناً طيفورية كاخا نسبة الى طيفور ، لعله

اول من اقترح صنعها . والسكَّرَجَة لفظة فارسية ، ومعناها مقرب الخل vinaigrier (شفاة
الغسل للخفاجي ، ص ١١٩)

(٣) معجم البلدان ٢ : ٦٩٤

الماء ويفتح هذا الصهريج من موضعين في اعلاه واسفله . فيخرج ماؤه من اسدين من صُفر .^(١)

ومن الاديار التي عُلِّقت في الجبال بصر دير مغارة شقلقييل ، تجاه منفاوط . وهو نقر في الحجر على صخرة تحتها عقبة . لا يتوصل اليه من اعلاه ولا من اسفله . ولا سُلم له . وانما جعلت له نقور في الجبل . فاذا اراد احد ان يصعد اليه . أرخيت له سَلْبَة فامسكها بيده . وجعل رجله في تلك النقور وصعد . ودير الطير قبالة سماوط وله سلام منحوتة في الجبل .^(٢) ودير السبعة الجبال باخميم ، وهو دير عال بين جبال شاحنة . ولا تشرق عليه الشمس الا بعد ساعتين من الشروق لعلّ الجبل الذي هو في لُفّه . واذا بقي للغروب نحو ساعتين يُخَيَّل لمن فيه ان الشمس قد غابت واقبل الليل فيشعرون حينئذ الضوء فيه . ومن داخل هذا الدير دير القرقس وهو في اعلى جبل قد نقر فيه . ولا يعلم له طريق بل يصعد اليه في نقور في الجبل . ولا يتوصل اليه الا كذلك .^(٣)

وكثيراً ما كانت الاديار تُحصَّن بالاسوار الشاهقة وابواب الحديد ، خوفاً من اللصوص والدُعّار ، كدير الاسكون بالحيرة .^(٤) وعمر مار يونان بالانبار .^(٥) وربما ارتفعت جدرانها مئة ذراع ، فيما قيل ، كدير باعربا بين الموصل والحديثة على شاطئ دجلة .^(٦) ودونها السور المحيط بدير الزعفران في لُفّ جبل نصيبين . وقلّ ان تتخذ ابوابها من الحجر الصلب كدير طورسينا . كان له ثلاثة ابواب حديد . وفي غربيته باب لطيف . وقدامه حجر اذا ارادوا رفعه رفعوه . واذا قصدهم قاصد ارسلوه فانطبق على الموضع فلم يعرف مكان الباب .^(٧) وكدير باطا بالسن بين الموصل وتكريت وهيت . زعموا ان بابة الحجرى كان يفتحه الواحد والاثنان .

(١) مسالك الابصار ١: ٢٩٩

(٢) خطط المقرئزي ، مطبعة النيل ، ٤: ٤١٢

(٣) خطط المقرئزي ، مطبعة النيل ، ٤: ٤١٢

(٤) معجم البلدان ٢: ٦٤٢

(٥) مسالك الابصار ١: ٢٨٦-٢٨٧

(٦) معجم البلدان ٢: ٦٤٥

(٧) معجم البلدان ٢: ٦٧٦

فان تجاوزوا السبعة لم يقدرُوا على فتحه البتة^(١) (كذا)
على ان كل هذه الابواب الحديدية والحجرية وكل هذه الاسوار الشاهقة
المتوقلة في الجبال لم تكن تحمي الرهبان ، على كثرتهم احياناً ، من عواذي
اللصوص وفتكات الاعراب والاكراد واشباههم من قطاع الطريق . وليس هنا
محلّ تعدادها . ويكفي شاهداً واحداً عليها ما رواه صاحب مرآة الزمان في
حوادث سنة ٤٤٩ (١٠٥٧ م) قال :

« فيها صعد عشرون رجلاً من الغز الى دير النصارى في ميافارقين . فيه
اربعمائة راهب . فذبحوا منهم مائة وعشرين واشترى الباقون نفوسهم بست مكاي
ذهب وفضة . »^(٢)

وكانت القباب بشكلها البيزنطي تعلو بعض الاديار وتستوقف طرف الناظر
اليها . ولا سيما اذا كان البناء زاهياً مشرقاً بلون الحمرة كقباب دير يوسف
بالموصل . وقد تشوّق اليها السري الرفاء مرتين في شعره . فقال في احد اسفاره :

يا دير يوسف ، لا عدت لك نحية للهن بين رواعد وبوارق ،
غراء ضاحكة اليها ثغورها ، ضحك الحبيب الى المحب الوامق .
سقياً لتلك منازل معسورة من كل مطروق الفناء ، وطارق !
حمر القواعد والقباب ، كأنها أشربن رقراق الخلق الرائق . (٣)

واله ايضاً من قصيدة قالها ، وهو مجلب ، يتشوّق بها للموصل ودير يوسف :

احلّ صبوتنا دعاء مشوق برتاح منك الى الهوى الموموق ،
هل اطرقنّ العمر بين عصاة سلكوا الى اللذات كل طريق ؟
ام هل ارى القصر المنيف معسماً برداء غيم كالرداء رقيق ،
وقلالي الدبر التي ، لولا النوى ، لم أرمها بقلى ولا بعفوق ،
محبرة الجدران ينفخ طيبها فكأنها مبنية بخلق ا (٤)

واكثر ما ذكرت هذه القباب في الحيرة والعراق . وهي من الابنية القديمة .
عرفت منها في الحيرة قبة السُّنيق . وقبة غصين الى جانب دير الحريق في الحيرة .

(١) معجم البلدان ٢ : ٦٤٦

(٢) مرآة الزمان . خزانة بريتش موزيوم Or. 4619, f° 241^a

(٣) ديوانه . خزانة باريس ٣٠٩٨ ، ص ١٤٧

(٤) بتيمة الدهر للشعالي ، طبعة دمشق ، ١ : ٤٨٨

زعم العمري انها راهبانُ نسبتا اليهما . قال وهما بديعتا البناء^(١) . وبازائهما قباب
اخرى يقال لهما الشكورة (او السكورة) ذكرها احد الشعراء فقال يصف خروج
نساء النصارى منها الى قبة السنيق :

والنصارى مشددين الزنانير عليهن كل حلي وثيق
يتمشّين من قباب الشما نين الى صحن قبة السنيق (٢) .

ولبعض الديارات سمعة طائفة بنفاسة البناء ، واحكام الصنعة ، وبلوغ
النهاية في الزينة والبهاء . منها دير الرصافة رصافة هشام . قال ياقوت : « رأيتهُ وهو
من عجائب الدنيا حسناً وعمارة . »^(٣) وكانت هياكلها وقلاليها وارضها مؤثرة
مفروشة بانواع المرمر وضروب الرخام المجزّع . مزوّقة الجدران والسقوف باشكال
النقوش والفصوص المذهبة . ومن الغريب انه لم يتفق لاحد الشعراء او مؤلفي
الديارات وصف شيء من افانين الفسيفساء على كثرتها وشيوعها في الشام ومصر
والعراق قال ياقوت : « وكان اهل ثلاث بيوتات يتبارون في البيع وزينتها . اهل
المنذر بالحيرة . وغسان بالشام . وبنو الحارث بن كعب بنجران . وبنوا دياراتهم في
المواقع التزهة الكثيرة الشجر والرياح والغدران . ويجعلون في حيطانها الفسافس
وفي سقوفها الذهب والصور . »^(٤)

ومنها دير نجران « بناء بنو عبد المدان بن الديان . بنوه صريعاً مستوي
الاضلاع والاقطار . مرتفعاً عن الارض . يصعد اليه بدرجة على مثال بناء الكعبة .
فكانوا يحجّونه هم وطوائف من العرب . ولذلك سمّاه الاعشى كعبة نجران بقوله
يخاطب ناقته ، مشيراً الى بني عبد المدان :

وكعبة نجران حتمٌ عليك حتى تنأخي بابواجا (٥)

وليس لدينا اقلّ اشارة الى ما كان في كنائس الاديان من المصاحف الشمينة
وطرائف الآنية والزينة . وغاية ما روي في هذا الباب ان الدير الاعلى فوق
الموصل لم يكن للنصارى دير مثله « لما فيه من اتاجيلهم ومتعبداتهم . »^(٦) ولكن

(٢) كتاب الديارات للشابتي ، ١٠٥-١٠٦

(٤) معجم البلدان ٢ : ٢٠٣

(١) مسالك الابصار ١ : ٢١٥

(٣) معجم البلدان ٢ : ٦٦٠-٦٦١

(٥) معجم البلدان ٢ : ٦٤٤

إذا تذكرنا أن معظم هذه الديارات كان مبنياً قبل الإسلام في عهد
لرومانين والبيزنطيين ، تيسر لنا تصور ما كان مجتمعاً فيها مصوناً في خزائنها
من الذخائر والأعلاق النفيسة ، ومصوغات الذهب والفضة . ولا سيما أن طائفة منها
كانت من بناء القياصرة والملوك . وقد روي عن النعمان بن المنذر ملك الحيرة
أنه ، لما بنى دير هند الصغرى ، « كان يصلي به ويتقرب فيه . وأنه علق في
هيكله خمس مئة قنديل من ذهب وفضة . وكانت أدهانها في أعياده من زنبق
وبان وما شاكلهما من الأدهان . ويوقد فيه من العود الهندي والعنبر شي . يجل
عن الوصف » .^(١) وكانت بيعة أباهور في دير سرياقوس بمصر « مثرية بفضة قناديلها
وذهب صلبانها » .^(٢) ولها نظائر كثيرة في جميع ديارات الشام ومصر والعراق لا
سبيل إلى تعدادها .

وتد ولع الشعراء منذ الجاهلية بذكر الدُمى والصور في البيع والأديار وتشبيه
الحسان بها . وهي كانت أمماً محفورة منقوشة بأنواع الأصبغة والأدهان . وأما
مرسومة بأزهى الألوان . ذكروا أن دير باعنتل من جوسية من أعمال حمص كان
فيه عجائب « منها أزج أبواب فيها صور الأنبياء محفورة منقوشة فيها . وهيكل
مفروش بالمرمر لا تستقر عليه القدم . وصورة مريم في حائط منتصبه كلما ملت إلى
ناحية كانت عينك إليها » .^(٣) واشتهرت أيضاً في دير القصير في ذروة جبل شهران
في ضاحية مصر « صورة مريم في حجرها المسيح في غاية اتقان الصنعة . وكان
نخارويه بن أحمد بن طولون يكثر غشيانه وتعجبه تلك الصورة ويشرب
عليها » .^(٤) وقد وصفها محمد بن عاصم بقوله :

صورة من مصوّر فيه ظلت فتنة للقلوب والابصار ،
أطربتنا بغير شدة ، فاغنت عن سماع العبدان والمزمار ،
يفتر الجسم ، حين ترميه حسناً بفنون من طرفها السحار ،
وأشاراتها إلى من رآها بخضوع وذلة وانكسار .
لا وحسن العينين ، والشفة اللحياء منها ، وخدها الجلتاري ،

(١) مسالك الإبصار ، ص ٣٢٢ (٢) مسالك الإبصار ، ص ٣٦٠

(٣) معجم البلدان ٢ : ٦٨٥

(٤) الديارات الشاميّة ١٢٦

لا تخلفتُ عن مزارى لدير هي فيه ، ولو نأى بي مزارى (١)
 واهل صورة دير مار سرجس كانت ايضاً تمثل العذراء . « حكى عبدالله
 الربيعي قال : دخلت انا وابو النصر البصري مولى بني جمح بيعة مار سرجس وقد
 ركبنا مع المعتصم نتصيد . فوقفنا انظر الى جارية كنت اهواها . وجعل هو ينظر
 الى صورة في البيعة استحسناها حتى طال ذلك . ثم قال ابو النصر :

فنتننا صورة في بيعة فتن الله الذي صورها !
 زادها الناقد في تحسينها فضل حسن انه نفّرها ؛
 وجهها ، لاشك عندي ، فتنة وكذا هي عند من ابصرها ،
 انا للقس عليها حاسد ؛ ليت غيري عبثاً كسرها (٢)

وفي هذا التمني الاخير ، بعد الاعجاب الاول ، موضع استغراب واعتبار
 ومن نفائس الصور التي اشتهرت بقدمها وصبرها على عوادي الزمن ، وجمالها
 واتقانها ، وزهاء ألوانها ، صورة دير الباعوث على شاطئ الفرات . كانت في هيكله
 « دقيقة الصنعة عجيبة الحسن . يقال ان لها مئين من السنين لم تتغير اصباغها ولا
 حالت ألوانها . » (٣)

- وذكروا ان بدير ابا يوسف ، فوق الموصل ، عجائب من بدائع التصوير (٤)
 وروى الخالدي انه كان في هيكل دير مرّان بدمشق صورة عجيبة دقيقة
 المعاني (٥) . وتقل ياقوت مثل ذلك في دير مار ماعوث على شاطئ الفرات وقال : في
 صدره صورة حسنة عجيبة (٦) . ولما زار العمري دير المصلبة بظاهر القدس ، رأى
 فيها صوراً يونانية في غاية من محاسن التصوير (٧) .

وبالاجمال لم يكن دير من الاديان يخاو من امثال هذه الصور اليونانية
 البيزنطية « فتنة المقاب والابصار » كما تقدم . من وصف محمد بن عاصم لها . ولا
 يخفى ما اصاب تاريخ الننون الشرقية بضياعها ، وفقدائها ، واحراقها في الفتن
 والمظالم ، من الخسارة الشديدة التي يُنّاح عليها ويُبكي .

(١) الديارات للشاذلي ، ١٢٦ ٢٢ مسالك الابصار ، ٢٧٤

(٢) مسالك الابصار ، ٢٦٢ (٤) مسالك الابصار ، ٢٠٢

(٥) معجم البلدان ٢ : ٦٩٩ (٦) معجم البلدان ٢ : ٧٠٠

(٧) مسالك الابصار ، ٢٣٩

القلالي والأُكَّيراح

في تاج العروس ان القلّية بالكسر وشدّ اللام شبه الصومعة . ومنه كتاب عمر (رضه) لنصارى الشام لما صالحهم ان لا يحدّثوا كنيسة ولا قلّية . وهي القلّاية عند النصارى معرّب كَلَاذَة (كذا)^(١) . والصواب انما مأخوذة من اللفظة اليونانية

κλάδιον

وتجمع القلّية على قلاليّ بالتشديد مثل علّية وعلاليّ . وقد تخفّف الياء . ومنه قول العمري في كلامه على دير الكلب « وقلاليه مبنية بعضها فوق بعض . »^(٢) ونظيره بيت ابي بكر الخالدي :

منادياً في قلاليه رهبانة راحت خلائفهم اصفى من الراح (٣)

وللسريّ الرقاء في دير سعيد ، بالجانب الغربي من الموصل ، ابيات قال فيها :

ام هل ارى القصر المنيف معسماً برداء غيم كالرداء رقيق

وقلاليّ الدير الذي ، لولا النوى ، لم أَرِها بقلّ ولا بعنوق (٤)

وربما تُجَوِّزُ بحذف الياء والاستعاضة عنها بالتنوين . ومنه قول صاحب مسالك

الابصار في دير سعيد « حوله قلالي كثيرة . »^(٥) ولاحد الشعراء في دير اَبْرُون :

سقى الله ذاك الدير غيثاً لاهله وما قد حواه من قلالي ورهبان (٦)

وقد غلب في الاستعمال لفظ قلّاية على ضعفه . وورد كثيراً في الشابشتي

والعمري وسائر كتب الديارات . واشتهر في الحيرة ببناء كالدير عُرف بقلالية القس

وفيهما يقول الثرواني :

خليلي من تيم وعجل ، هديتاً ! أضيفا بحت الكأس يومي الى امسي

وان انما حبيبتاني نعيّة ، فلا تعدوا ريمان قلّاية القس (٧)

(١) تاج العروس ٨ : ٨٦

(٢) مسالك الابصار ، ٢٥٤

(٣) يتيحة الدهر الثمالي ، طبعة دمشق ، ١ : ١٢٥

(٤) مسالك الابصار ، ٢٩٢

(٥) مسالك الابصار ، ٢٨٩

(٦) معجم البلدان ٢ : ٦٤٠

(٧) معجم البلدان ٦ : ١٥٦

وفي ضبط لفظ القلاية خلاف بين الشعراء . فرواها التعاويذي بكسر القاف
وتخفيف اللام في بيت له في صفة الخمر قال فيه :

من عتاد الرهبان لم يخلُ عَمَر الدهر منها قلاية الجاثليق (١)

وحكى البكري فتح القاف وتخفيف اللام وتشديدها ايضاً في البيت
المعروف :

قلاية النفس ، مالي عنك مصطبرُ ومن الى من لحاه فيك يعتذر (٢)

وروى الخفاجي انه في زمانه (القرن الحادي عشر للهجرة والسابع عشر للمسيح)
كان يقال للقلاية قلة غلطاً . قال : «ومعابد النصارى ومساكن الرهبان منها كنائس
وهي ما يعذونه للعبادة . وهي معروفة الآن . ومنها دير وقلية وصومعة . فما كان
خارج البلدان والقرى ان كان فيه حجرات ومرافق فهو دير . واما القلاية وجمعها
قلايا فهي بناء مرتفع كالمنارة تكون لراهب ينفرد فيها . وقد لا يكون لها باب
ظاهر . والصومعة دونها وهي معروفة . كذا في كتاب الكنائس .» (٣)

وقد فاتته ان ينبه على مؤلف هذا الكتاب . ولم نجد له ذكراً في كشف
الظنون . فلا ندري من اي عصر شهادته . ولا شك ان القلاية كانت تكون ايضاً
داخل الديارات تطلق على الحجرات فيها وغرف الرهبان ، كما تعرف بها اليوم .
وقد تقدم من كلام ياقوت الرومي ان الاديار كانت اكثر ما ترى في ظواهر
البلاد . ولكن لدينا شواهد كثيرة على وجود جانب منها غير قليل في داخل
المدن . وفيها القلاية كما في الزمن الحاضر .

وكانت القلاية التي في الضواحي تقام قديماً في جوار الاديار . ولكل
راهب من المنتسبين اليها قلية خاصة يفصلها عن الدير وعماء جاورها بستان فيه
اصناف الاشجار والثمار والبقول والياحين . يهتم الراهب بزراعتها والقيام عليها ،
ويرتق ببيع غلتها . واشتهر بهذا الوضع دير قنّى قريباً من بغداد . كان فيه مئة
قلية لرهبانة والمتبتلين فيه . وعمر كسكر اسفل من واسط . كان حوله قليات

(١) ديوانه ، ص ٢٠٨

(٢) معجم ما استمعتم للبكري ، ٢٦٩

(٣) شفاء الغليل ، ١٨٩-١٩٠

كبيرة قد انفرد كل راهب بوحدة منها. ويحيط بالموضع بساتين كثيرة^(١). وكان الرهبان يتبايعون هذه القلايى بينهم من الف دينار الى مائتي دينار الى خمسين ديناراً^(٢). ولا ريب ان الاثنان كانت تختلف باختلاف المواقع ، واتقان البناء ، واتساع البساتين ، وارتفاع الغلال. واهمها غلة النخل والزيتون والكرم. وكانت هذه الغلة وقتئذ تباع من مائتي دينار الى خمسين ديناراً^(٣).

ومن الديارات التي عرفت بكثرة قلايىها دير الزعفران بنصيبين^(٤). ودير سعيد بجانب الموصل^(٥). ودير مريخنا الى جانب تكريت على دجلة^(٦) وعمر يونان بالانبار^(٧). وامتاز دير الكلب قرب معلثايا من نواحي الموصل ببناء قلايىه بعضها فوق بعض في صعود الجبل. فنظرها احسن منظر^(٨). ومثلها قلايى دير الزعفران. كان بناؤها متراففاً باحسن وصف واملح تكوين. وله سور يحيط به^(٩).

وكان بعض هذه القلايى لا يخلو من النفاسة والتألق والزخرفة كالقلية التي زارها ابو الفرج البهاء في دير مران بدمشق وشاهد في صحنها « بيتاً فضي الحيطان رخامي الاركان يضم طارمة خيش مفروشة بحصير مستعمل^(١٠) ». وهذا غاية ما وقفنا عليه من وصف بناؤها وتعريف ما كانت تشتمل عليه. وهو ما يدل على انها لم تكن مقتصرة على حجرة واحدة. وكان اكثرها مرتفعاً يُشرف على ما حوله من الجنان والرياض والغدران. ولذلك كان عشاق الصباء من المسلمين يوثرون الشرب على سطحها للتمتع بجمال مُطالها. ونضارة ما تتناوله العيون من

(١) كتاب الديارات للشابشتي ، ١٢٠

(٢ و٣) كتاب الديارات للشابشتي ، ١١٥-١١٦

(٤) مسالك الابصار ، ٢٥٥

(٥) مسالك الابصار ، ٢٨٩

(٦) مسالك الابصار ، ٢٠٩

(٧) مسالك الابصار ، ٢٨٦

(٨) مسالك الابصار ، ٢٥٤

(٩) مسالك الابصار ، ٢٥٥

(١٠) البيتية للثعالبي، طبعة مصر ، ١ : ٢٠٤ وفي المتن المطبوع : « طارقة خيش » ، وهو

نطاقها^(١) . ومن قعدت به الحال عن تحصيل قلبية منها او ابتياعها كان يتخذ له بيتاً ضيقاً يقال له الكرح .

والكرح بالكسر بيت الراهب والجمع اكواح^(٢) . ولم يفترها في اللسان . ومن الغريب ان الجمع لم يأت الا بصيغة التصغير « أكيراح » قال : وهي بيوت ومواضع تخرج اليها النصارى في بعض اعيادهم وهو معروف^(٣) . وروى الخالدي ان « الأكيراح بيوت صغار تسكنها الرهبان الذين لا قلاي لهم . يقال لواحدها كرح . »^(٤) والصحيح ان اللفظة سريانية وهو مأخوذ ومعناها الكوخ الصغير .

واشتهر بمثل هذه الأكيراح دير حنة ، بظاهر الكوفة ، في بقعة كثيرة البساتين والرياض . وفيه يقول ابو نواس مشيراً الى راهباته الحسنات :

يا دير حنة من ذات الأكيراح ، من يصح عنك ، فاني لست بالصاحي !
رأيت فيك ظباء لا قرون لها يلعبن منا بالباب وارواح (٥)

وله ايضاً فيه

دع البساتين من آس وتغاح ، واعدل ، هُديت الى دير الأكيراح (٦)

والظاهر ان هذه البيوت والاكواح كانت مختصة بديارات الحيرة والعراق وحدها ، لاننا لم نجد لها ذكراً آخر في ديارات مصر والشام .

(١) مسالك الابصار ، ٢١٥ و ٢١٦ و ٢١٨

(٢) تاج العروس ٢ : ٢١١

(٣) لسان العرب ٣ : ٤٠٥

(٤) معجم البلدان ١ : ٣٤٥

(٥) ديوان ابي نواس . باريس ١٩٢٩ ، ١ : ١٩٠

(٦) ديوان ابي نواس . الفاتيكان ١٩٥٦ ، ص ١٠٠ ، وهذا البيت منسوب أيضاً للبكر

ابن خازجة باختلاف قليل في العجز (معجم ما استعجم للبكري ، ص ٢٧٢-٢٧٣)

القائم في الديارات

وردت هذه اللفظة في كتب الديارات ولم تُشر اليها معاجم اللغة . ذكرها ابو الفرج الاصبهاني في تعريفه دير حنة بظاهر الكوفة . قال : « وهو دير قديم بناء حي من تنوخ يقال لهم بنو ساطع . تحاذيه منارة عالية كالمرقب تسمى القائم . »^(١) والى هذا القائم اشار الثرواني بقوله :

يا دير حنة ، عند القائم الساقى ، الى الخورنق من دير ابن برآق (٢)

وربما اشتهر الدير بقائه ، كدير القائم الاقصى على شاطئ الفرات ، من الجانب الغربي ، في طريق الرقة من بغداد . قال ابو الفرج ايضاً : « وقد رأيته . وانما قيل له القائم لان عنده مرقباً عالياً كان بين الروم والفرس . يُرَقَّب عليه على طرف الحد بين المملكتين شبه تل عقرقوف ببغداد . واصبع خفان بظهر الكوفة »^(٣) . وبهذا الدير مرَّ اسحق الموصلي لما خرج مع الرشيد وطاف به . ورأى فيه راهبة حسناء عليها المسوح فقال فيها :

بدير القائم الاقصى ، غزال شادن احوى (٤)

فالقائم على ذلك هو المرقب كان يُقام بين الروم والفرس . ولكن هنالك ادياراً اخرى في الاسلام للملكانية واليعقوبية كانت معروفة ايضاً بقائها ، وليس فيها صفة المرقب . منها دير القيّارة لليعقوبية على اربعة فراسخ من الموصل في الجانب الغربي من اعمال الحديثة . قال الشابشتي : « وكل دير لليعقوبية والملكانية فعنده قائم . وديارات النسطورية لا قائم لها . »^(٥) فالقائم اذن لم يكن مرقباً فقط . ولعلّ اوجه ما يقال فيه انه كان شبه صومعة كانت تتخذ الى جانب بعض الاديار لسكنى احد النساك المعتزلين فيها كالصومعة التي اقامها على باب دير سر يحنأ ، الى جانب تكريت ، عبدون الراهب وهو رجل من الملكية ونزلها ، فصارت تعرف به^(٦) .

(١) معجم ما استعجم للبكري ، ٢٧٢ (٢) معجم البلدان ١ : ٣٤٥

(٣) معجم البلدان ٢ : ٦٨٤ (٤) مسالك الابصار ، ٢٦٦-٢٧٠

(٥) كتاب الديارات للشابشتي ، ١٢٢

(٦) كتاب الديارات للشابشتي ، ٧٣

أديار النساء

لم يُعَنَّ أحدٌ من تكلم على الديارات بتعداد ما كان منها للنسوة المتبتلات والجواري الرواهب . وإنما أشاروا الى قسم منها عَرَضاً وفي شجون الحديث . وليس بين اسمائها إلا ديران فقط تدلّ تسميتهما صريحاً على جنسهما ونسبتهما . وهما دير الخوات ، ودير العذارى . وقد استقرينا كل الاخبار والاشعار المروية ولم نجد بينها الا تسعة عشر فقط يصح اثباتها وافرازها للاناث وهي :

١ دير الخوات بعكبرا . « وهو دير كبير عامر يسكنه نساء متهربات متبتلات فيه . »^(١) ولفظة الخوات تحريف الأخوات . وفي هذا الدير كانت تكون ، فيما زعم بعض السفهاء المتفولين ، ليلة الماشوش . وسنفرد للإشارة اليها وتزييف تهمتها فصلاً نثبت فيه بطلان هذه القالة الشنعاء بشهادة بعض كتبة الاسلام .

٢ دير العذارى بين سرّ من رأى وبغداد . قال الخالدي : وشاهدته . وبه نسوة عذارى^(٢) . وروى العمري انه « كانت حوله حانات للخمارين وبساتين ومتنزهات . لا يعدم من دخله ان يرى من رواهبه جواري حسان الوجوه والقود والالفاظ . »^(٣)

٣ دير العذارى في قطيعة النصارى ببغداد^(٤) .

٤ دير العذارى بالحيرة^(٥) .

٥ دير القائم بالركة . كان فيه ، فيما يظهر ، مساكن للعذارى . حكى اسحق ابن ابراهيم الموصللي قال :

« خرجنا مع الرشيد يزيد الرقة . فلما صرنا بالموضع الذي يقال له القائم نزلنا وخرج يتصيد وخرجنا معه . فابعد في طلب الصيد . ولاح لي دير فقصدته . . . فقتل صاحبه ففتح الباب . . . وعرض علي الطعام فأجبتة . فقدم لي طعاماً من طعام

(١) كتاب الديارات للشافعي ، ٢٨

(٢) معجم البلدان ٢ : ٦٧٩

(٣) مسالك الابصار ، ٢٥٨

(٤) معجم البلدان ٢ : ٦٨٠

الديارات نظيفاً طيباً . فاكلت منه . واتاني بشراب وريحان فشربت منه . ووكل لي جارية تخدمني راهبة لم أر احسن منها ولا اشكل . فشربت حتى سكرت . وغت وانتبهت عشاء فقلت في ذلك :

بدير القائم الاقصى ، غزال شادن احوى ،
برى حيي له جسمي ، ولا يعلم ما القى ؛
واكتم حبه جهدي ولا ، والله ، ما يخفى .

وركبت فلحقت بالمعسكر . والرشيذ قد جلس للشرب وطلبني فلم أوجد . وأخبرت بذلك . فغنيت بالابيات ودخلت اليه . فقال لي اين كنت ويحك . فاخبرته الخبر وغنيت الصوت . فطرب وشرب عليه حتى سكر . وآخر الرحيل في غد . ومضينا الى الدير ونزله . فرأى الشيخ واستنطقه . ورأى الجارية التي كانت تخدمني بالامس فدعا بطعام خفيف فاصاب منه . ودعا بالشراب وامر الجارية التي كانت بالامس تخدمني ان تتولى خدمته وسقيه ففعلت . وشرب حتى طابت نفسه . ثم امر للدير بالف دينار وامر باحتمال خراجة له سبع سنين .^(١)

٦ دير العث على شاطئ دجلة من الجانب الشرقي . وقد صرح جحظة البرمكي في شعر قاله فيه انه كان فيه عذارى لابسات المسوح . وهذه ابياته :

ايما الحاذقان بالله ، جُداً وأصلحا لي الشراع والسكانا
واحطط لي الشراع بالدير ، بالعث ، لعلي اعاشر الرهبانا
وظباء يتلون سفرًا من الا نجيل ، باكرن ، سحرة قربانا
لابسات من المسوح ثياباً جمل الله نحتها اغصانا
خففات ، حتى اذا دارت الكأ س ، كشفن النجور والصلبانا (٢)

٧ دير مارت مروثا . في سفح جبل جوشن مطل على مدينة حلب . قال الخالدي : هو صغير وفيه مسكنان احدهما للنساء . والآخر للرجال . ولذلك سمي بالبيعتين . وقلما مر به سيف الدولة الا تول به^(٣) . وكان في زمان ياقوت قد خرب ودرست آثاره .

(١) الاغاني ، طبعة بولاق ، ١٢٣:٥ - ١٢٤

(٢) معجم البلدان ٢: ٦٨١

(٣) مسالك الابصار ، ٣٤٩ - ٣٥٠

٨ دير صليبا بدمشق مطّل على الغوطة . يُعرف بدير السائمة . وإلى جانبه دير النساء . وهما في الأرجح الديران اللذان ارادهما جرير بقوله :

إذا تذكرت بالديرين ، أرّقني صوت الدجاج وقرع بالنواقيس (١)

٩ دير مرّان في سفح جبل قاسيون بدمشق . يظهر انه كان فيه مساكن للرواهب في جوار مساكن الرهبان . وهو ما يؤخذ من قصيدة لعون الدين بن العجمي (٦٠٦-٦٥٦ للهجرة = ١٢٠٩/١٠-١٢٥٨) قالها يمدح بها الملك الناصر صلاح الدين . ومنها هذه الابيات :

يا سائفاً يقطع البیداء ، متسهماً ، بضامراً لم يكن في سيره واني ،
ان جزت بالشام ، شمتك الهروق ، ولا تعدل ، باغت الخي ، عن دير مرّان .
واقصد اعالي قلاله تلاقحاً ، ما تشتهي النفس من حور وولدان ،
من كل بيضاء هيفاء القوام ، اذا ماست ، فيا خجلة المرّان والبان !
وكل اسمر قد دان الجمال له ، وكحلّ المسن فيه فرط احسان (٢)

١٠ دير هند الصفري بالحيرة . وهي هند بنت الملك النعمان بن المنذر « ترهبت فيه وسكنته وعاشت دهرًا طويلاً . ثم عميت . وهذا الدير من اعظم ديارات الحيرة واعمرها . وفيه زارها الخجاج المشهور . وقبله سعد بن وقاص حين فتح العراق . والمغيرة لما ولاه معاوية الكوفة . وخطبها المغيرة حباً بالتشرف بها فاجابته : اي فخر في اجتماع اعور وعمياء . » (٣)

١١ دير هند الكبرى بالحيرة ايضاً . بنته هند ام عمرو بن هند . وهي هند بنت الحارث بن عمرو بن حجر آكل المرار الكندي . وكان في صدره مكتوباً : « بَنَتْ هذه البيعة هند بنت الحارث بن عمرو بن حجر الملكة بنت الاملاك . وام الملك عمرو بن المنذر . أمة المسيح وام عبده وبنت عبيده . في مُلك مَلِك الاملاك خسرو انوشروان في زمن مار افريم الاسقف . فالاله الذي بنت له هذا الدير يغفر خطيئتها ويترحم عليها وعلى ولدها . ويُقبل بها ويقومها الى امانة الحق . ويكون الله معها ومع ولدها الدهر الداهر . » (٤)

(١) مسالك الابصار ، ٢٤٩-٢٥٠

(٢) فوات الوفيات لابن شاكر الكتي ٢٢٥-٢٢٦

(٣) ديارات الشامي ، ١٠٦-١٠٧ (٤) معجم البلدان ٢ : ٧٠٩

١٢ دير مارت مريم بالحيرة . مرَّ به اسحق بن ابراهيم الموصلی لما خرج الى النجف مع الرائق . فقال فيه :

نعم المحلّ لمن يسمی للذّتي دير لمريم ، فوق الظهر ، معصور .
ظلّ ظليل ، وماء غير ذي اسن ، وقاصرات كأمثال الدمى حور . (١)

وقد روى ياقوت هذين البيتين وذكر غلطاً ان الدير بنواحي الشام^(٢) .

١٣ دير النساء الى جانب كنيسة مريم بدمشق . وهو الذي نهبه ثوار المسلمين في نصف رجب سنة ٣١٢ (١٧ ت ١٢٤١) حين هدموا كنيسة مريم^(٣)

١٤ دير حنة بظاهر الكوفة . يؤخذ من ابيات فيه لابي نواس انه كان فيه عذارى مترهبات ، وهو قوله يخاطبه مشيراً الى من فيه من الجوّاري المتبتلات :
رأيت فيك ظباء لا قرون لها يلعبن منا بألباب وارواح (٤)

١٥ دير يوسف بالموصل وصف السري الرفاء راهباته وكفى عنهنّ بالدمى النواطق قال :

كم دمنة خرساء فيه ودمية فضّت عليها باللسان الناطق (٥)

١٦ دير البنات مشرف على ارض طرابلس . زاره الشاعر الطيّبي « ورأى فيه كل عذراء تُدهش المتخيّر وتُخيّر المتخيّر »^(٦)

١٧ دير الراهبات بجارة زويلة من القاهرة .

١٨ دير البنات بجارة الروم بالقاهرة .

١٩ دير المعلقة بمدينة مصر . وكان اشهر ديارات النساء

وهذه الاديار الثلاثة الاخيرة كانت في زمان المقرئ (١٣٦٥-١٤٤١ م)

عامرة بالنساء المترهبات^(٧)

ولا شك انه كان هنالك اديرة اخرى للراهبات لا سبيل لنا اليوم لتعيينها

لعدم الاشارة اليها صريحاً في الاصول التي لدينا .

(١) الاغانى ، طبعة بولاق ، ١٢٨ : ٥ (٢) معجم البلدان ٢ : ٦٩٢

(٣) تاريخ ابن بطريق ٢ : ٨٢ (٤) ديوان ابي نواس . باريس ١٩٨٢ : ١٠٠

(٥) ديوانه باريس ١٩٨٨ ، ص ١٤٧

(٦) مسالك الابصار ، ٢٣٤

(٧) المخطوط ، طبعة النيل ، ٢١ : ٤

الاديار التي كان ينزلها الخلفاء والملوك والامراء

ووجوه الدولة

من اقدمها ذكرًا واعظمها مصرًا ديرُ مرَّان بدمشق . كان يزيد بن معاوية ثاني الخلفاء الامويين قد اتخذهُ وطنًا له ومنتزَهاً . وفيه قال ، وهو وليّ العهد ، بيتيه المشهورين لما سير معاوية جيشاً كثيفاً الى بلاد الروم للغزاة . وامر ابنه بالمسير معهم . فتشاكل واعتل . واصاب الناس في غزاتهم جوع ومرض شديد فانشأ يزيد يقول :

ما ان اُبالى بما لاقت جموعهم بالفقدونة من حمى ومن موم
اذا اتكأت على الاغاط مرتفعاً بدير مرَّان عندي ام كنتوم (١)

ونزله ايضاً بعده جماعة من الخلفاء من الامويين والعباسيين (٢) . ومثله دير صليبا مقابل باب الفراديس بدمشق كان الوليد بن يزيد كثير المقام به يخرج اليه ومعه حُرَمه استحساناً له (٣) . ودير يُونا (يوحنا) بجانب غوطة دمشق اقام الوليد بن يزيد فيه اياماً في تحرق ومجون (٤) . ودير الرصافة رصافة هشام بن عبد الملك وفيه قيل :
ليالي هشام بالرصافة قاطن وفيك ابنه ، يا دير ، وهو امير (٥)

ودير السوسي على شاطئ دجلة . ولا بن المعتز فيه :

يا ليالي بالمطيرة والكرخ ودير السوسي بالله عودي (٦)

(١) قال ياقوت : الخذقونة هو اسم جامع للفر الذي منه المصينة وطرسوس وغيرها ويقال له خذقونة (معجم البلدان ٣ : ٧٧٧) والظاهر انه خذقونة Chalcédoine وروى البكري في معجم ما استعجم (ص ٢٧٦) هذين البيتين في دير سمعان وان يزيداً اقام به ووجه الجيوش لغزو الروم . وهي غزاة الطوانة Teane ولذلك روى عجز البيت الاول « يوم الطوانة من حمى ومن موم » والاصح ما ذكرناه بدير مران .

(٢) مسالك الابصار ٢٥٥

(٣) مسالك الابصار ٢٤٩

(٤) مسالك الابصار ٢٥١

(٥) مسالك الابصار ٢٢٦

(٦) ديارات الشاشتي ٦٤

ودير عبدون . وفيه لابن المعتز ايضاً :

سقى الجزيرة ذات الظل والشجر ودير عبدون هطالاً من المطر
يا طالما نبهتني للصبح به في ظلمة الليل والعصفور لم يطير
اصوات رهبان دير في صلاتهم سود المدارع نهارين في السحر^(١)

ودير مرمار (مار ماري) بسر من رأى . قال الفضل بن العباس بن المأمون
«كنت مع المعتز في الصيد فانقطعنا عن الموكب . هو وانا ويونس بن بُعَا . ونظرنا
الى دير فيه ديرياني يعرفني واعرفه . مليح ظريف . فشكا المعتز العطش . فقلت ههنا
ديرياني ظريف مليح . فقال مُرُّ بنا . فجئنا فخرج الينا واخرج الينا ماءً بارداً .
وسألني عن المعتز ويونس . فقلت فتّيان من ابناء الجند . فقال لي تأكلون شيئاً .
فقلنا نعم . فاخرج لنا العلف شيء في الدنيا وأكلنا اطيب أكل . وجاءنا باطيب
أشنان واحسن آلة . فاستظرفه المعتز وقال لي قل له بينك وبينه : من تحب ان
يكون معك من هذين لا يفارقك . فقلت له . فقال كلاهما وقرأ . فضحك المعتز
حتى مال على الحائط . فقلت للديرياني لا بد ان تختار . فقال الاختيار والله في هذا
دمار ما خلق الله عقلاً يعز بين هذين . ولحقنا الموكب فارتاع الديرياني . فقال له
المعتز بجيأتي لا تنقطع عما كنا فيه . وفرحنا ساعة . ثم امر له بخمسة مائة ألف
درهم . فقال لا والله . لا قبلتها الا على شريطة . قال ما هي . قال يجيب امير المؤمنين
دعوتي مع من اراد . فقال ذلك لك . فوعدهناه ليوم وجئنا . فانفق علينا المال كله .
فوصله المعتز بثله وانصرفنا .»^(٢)

ومن دواعي الاسف ان لا يكون انتهى الينا وصف هذه الدعوة بالكمال
والتفصيل لانعلم كيف كانت تكون مثل هذه الولايم الحليفية في مثل الاديار
النصرانية .

ومن اديار الملوكة ايضاً دير زكى بالركة « كانت الملوكة اذا اجتازت به نواته

(١) ديوان ابن المعتز . باريس ٣٠٧٨ ص ١٠٥ وفي معجم البلدان لياقوت : سقى المطيرة

بدلاً من الجزيرة

(٢) جزء من تاريخ بغداد للخطيب . باريس ٢١٣١ ص ١٤١ ، والاغانى ٨ : ١٨٥

واقامت فيه لانه يجتمع فيه كل ما يريدونه من عمارته ونفاسة ابنيته وطيب
المواضع به .^(١)

ومنها عمر مرثومان (مار يونان) بالانبار . كان « من اجتاز بالانبار من الخلفاء
ومن دونهم ينزله مدة مقامه . »^(٢)

ومنها دير مار مروثا في سفح جبل جوشن مطّل على مدينة حلب . قال
الحالدي : وقلما مرّ به سيف الدولة الا نزل به . وكان يقول كانت والدتي محسنة
الى اهله وتوصيني به^(٣) . ومثله دير باعربا بين الموصل والحديثة . نزل سيف الدولة
فيه^(٤) .

ومنها دير الاعلى بالموصل « من اجتاز بالموصل من الولاة نزله » .^(٥)
واهم ديارات مصر التي كانت مألفاً للماوك والامراء ووجوه العمال والولاة
وابناء الخلفاء . دير القصير اعظم اديار الروم الملكيين واجملها مستشرفاً وموقعاً في
قبة الجبل المطّل على قرية شهران من قرى مصر البائدة . وكان احمد بن طولون
امير مصر كثيراً ما يطرقه ويخاو في بعض قلالته^(٦) . وجرى على أثره ابنه ابو الجيش
خارويه . وكان شديد الإعجاب بصورة فيه بالفسيفساء للعدراء . فكان يكثر
غشيان الدير للشرب على وجهها . وبني له فيه غرفة لها اربع طاقات يجلس فيها^(٧) .
ومن الامراء الشعراء ، الذين كانوا لا يفارقون الدير للقصف فيه والتتزه ، الامير
تميم بن المعز لدين الله الخليفة الفاطمي . وله فيه قصائد ومقطعات قال في بعضها :
ومن كان محبوباً على حب الله فاني على دير القصير حبيب^(٨)

(١) ديارات الشاشتي ٩٥ و ٩٨

(٢) ديارات الشاشتي ١١٣

(٣) معجم البلدان ، طبعة مصر ١٩٠٦ ، ٢ : ١٦٨

(٤) مسالك الابصار ٢٠١

(٥) ديارات الشاشتي ٧٥

(٦) سيرة احمد بن طولون للبلوي ، رقم ٢٤٢ من مخطوطات دار الكتب الاهلية الظاهرية

بدمشق ، الورقة ٢٤

(٧) ديارات الشاشتي ١٢٥

(٨) ديوانه . خزائن ليدن 2038 Arabe

واشتهر في دولة الممالك الأمير سيباي العلّائي الأشرفي بكثرة الخروج للصيد والاقامة من اجله في بعض الاديار . قال السخاوي : « كانت عليه رواتب لبعض ديور النصارى محتجاً بقصد من يرد عليهم من المسلمين خصوصاً . وهو يكثّر الخروج للصيد ويقيم عندهم فيها . ولم يزل في نحو الى ان قتل في ليلة الجمعة ثالث رجب سنة خمس وثمانين (وثمانائة) = (١٤٥٤ م) بخيّمه على شاطئ النيل قريباً من طما من اعمال اسيوط . »^(١)

وندر ان يكون دير في الاسلام من الديارات المشهورة لم يعرج عليه الخلفاء والملوك في غزواتهم وتنقلاتهم ، ولا سيما في اسفارهم الى الشام ورجوعهم منه الى العراق .

(١) الثاني من الضوء اللامع . الخزائن التيمورية ص ٥٢٩

مزروعات الاديار والقلالي

تقدم ان مساكن الرهبان كانت دائماً محفوفة بالبساتين والرياض . فلم تكن قليلة تخلو ، ألا فيما شذّ وندر ، من حديقة او جُنيّنة يقضي الراهب فيها قسماً من نهاره بين اشجاره وازهاره . وكانت المزروعات تتنوع تنوع الامصار والاتربة . وتكثر او تقلّ حسب مستغلها ورواج مبيعه في حاجات الدير . فكانت الكروم من ثم اوفرها انتشاراً واوسعها بقاءً للصيت الطائر الذي كان لُحْمور الاديار في الاسلام . وشدة الرغبة فيها والاتجار بها في كل البلدان . لحق خُمّاري النعاري باعتصارها . وتميزهم بنظافة الآنية وحسن الملبس والاجادة في اختيار انواع الاشربة وتعتيقها . مروغلب في الحيرة والعراق النخل مع الكروم . ولا يبعد ان يكون الرهبان فيها تعودوا ايضاً اتخاذ نبيذ التمر وهو الدوشاب والفضيخ . ويظهر ان الزيتون ايضاً كان غير قليل فيها وفي جهات نصيبين .^(١) واشتهر دير الزعفران على رأس الجبل المطل على نصيبين ، في ما عدا زعفرانه وريحانه ، بجنت فيه مملوءة بشجر البندق والفسق واللوز الفرك والزيتون والبطم .^(٢) وعُرف دير الكلب في سفح جبل بقرب معلتايابوفرة الزيتون فيه والمان والآس والكروم والزعفران والزرّجس .^(٣) واختص دير الزندورد وناحيته بالجانب الشرقي من بغداد بالفواكه والاترج والعناب . وكان عنبها من اجود ما يُعتصر هناك .^(٤) ونظيره في كثرة الفواكه والاعناب دير قنّى بالقرب من بغداد . ودير قوطا بالبردان على شاطئ دجلة . وعمر احويشا باسعد من ديار بكر . وكان لدير كفتون ببلاد طرابلس حوض كبير مملوء من شجر النارج يُحمل الى طرابلس ويباع فيها ويرتفق بشمنه الرهبان .^(٥)

(١) الديارات للشاذلي ص ١١٦ ، وممالك الابصار للعمري ص ٣٠٥

(٢) ممالك الابصار ص ٣٠٥

(٣) و٤ ممالك الابصار ص ٢٥٤

(٥) ممالك الابصار ص ٢٢٥

وامتاز رهبان عمر الزعفران بعنايتهم بتربية النحل واشتياار العسل . ومنه ومن الزعفران اكثر يسارهم^(١) . وغلبت زراعة النرجس والبنفسج والزعفران على دير مار مروثا بظاهر حلب . واشتهر دير مرّان في جبل قاسيون بدمشق برياضه الحسان . واشرافه على مزارع الزعفران . وحكى الخالدي انه اجتاز بدير العذارى بجانب العلت بين سرّ من رأى وبغداد وشاهد في جُنيّات لرواهبه جماعة يلقطن زهر العصفور . قال ولا ياتل حمرة خدودهن .^(٢) وكثرت في دير المصلبة بظاهر القدس اشجار الزيتون والكروم وشجر التين .^(٣)

وكان في دير إتراعيل ، على اقل من ميل من كفر عزيّ من قرى اربل ، صنوف الزهر في الربيع وانواع الاقاحي والشقائق . وفي قلاليّ رهبانه جُنيّات حسان فيها آس مصر وشجر مريم وغير ذلك .^(٤) ونظيره دير ابا يوسف فوق الموصل « وموضعه حسن معمور بالزيتون والسرو والآس والرياحين مفروس الربى بالنرجس . »^(٥)

وجملة القول ان الاديار كانت تشتمل خصوصاً في ما خلا الفواكه والبقول على الكروم لعصر الخمر . وعلى الرياحين والازهار للتحايا في الحانات ومجالس الشراب . وعلى الزعفران للتجارة . وسنفرد الكلام على كل منها بالتفصيل لما في التنبيه عليها من الفائدة والجدة والطرافة .

(١) مسالك الابصار ص ٢٠٥

(٢) مسالك الابصار ص ٢٥٨-٢٥٩

(٣) مسالك الابصار ص ٣٢٩

(٤) مسالك الابصار ص ٢٨٨

(٥) مسالك الابصار ص ٢٠٢

الخمر النصرانية

لم ينفرد النصارى بعصر الخمر وبيعها في الاسلام ، بل سبقهم الى الاتجار بها اليهود في الجاهلية . ولذلك قال عدي بن زيد في وصفها :
صاغها التاجر اليهودي حولسين واذكى من ريمها التعتيق^(١)
ووصف عبيد بن الابرس احداً معتقياً من اليهود بصبهة الشارب فقال في غزله :

كأن ربتها بعد الكرى اغتبت صباء صافية بالمسك مختومه
نما يغالي بها البياع ، عتقها ذو شارب اصب يغلي بها السيم^(٢)
وللمحسين بن الضحاك من ابيات يذكر خماراً يهودياً :
دسنت حمراء كالشباب له من كف خمار حانة أفك
يخلف عن طبعها بخالقه ، ورب موسى ، ومنشئ الفلك^(٣)

ومن بعض اوصاف الخمر التي كانوا يبيعونها في حاناتهم ما عرف بالجودة والقدم . ولذلك كان يقال لها معتقة اليهود . قال جحظة البرمكي جليسين له كانا يستطيبان عسرتة وغناؤه « اجلسا عندي حتى . . . اطعمكما طباهجة بكبود . واسقيكما معتقة اليهود »^(٤) ومن المواضع التي اشتهر اليهود بتعتيق الخمر فيها سورا من ارض بابل بالعراق ولاي جفنة القرشي فيها :
ما زلت اشربها واسقي صاحبي حتى رأيت لسانه مكسورا
نما تخبرت التجار ببابل او ما تعتقه اليهود بسورا^(٥)

وفي ديوان ابي نواس ابيات اشار فيها الى خماري اليهود . واجتاز مرة بجمص فشرب عند واحد منهم يقال له لاوي واستطاب شرابه وفضله على شراب قطربل^(٦) .

(١) التذكرة الحمدونية ، باريس ٣٣٢٤ ، ص ١٠٢

(٢) ديوانه ، طبعة ليال ، ص ٦١

(٣) رسالة الغفران لابي العلاء ، ص ١١٨

(٤) نشوار المحاضرة للنوحي ٢٠٥ : ١

(٥) معجم البلدان ٣ : ١٨٤ - ١٨٥

(٦) ديوان ابي نواس . خزانة الفاتيكان ٤٥٦ ، ٢ : ١٩٦ - ١٩٧

وكان المجوس من الفرس يشاركون اليهود أيضاً في الاتجار بالخمور وعقد الحانات. وفي إحدى بناتهم يقول ابن المعتز:

وخمارة من بنات المجوس ترى الزرق في بيتها سائلا
وزناً لها ذهباً جامداً فكالت لنا ذهباً سائلاً (١)

ونظيره قول عبد الله النُميري العراقي :

وخمارة من بنات المجوس لا تطعم النوم الا غرارا
طرقت على عجل ، والنجوم م في الجوّ معروضات حيارى (٢)

ولكن الخمور النصرانية ولا سيما معتقات الاديان كانت هي « المشهورة في الآفاق . المعروفة في مغارسها بكرم الاعراق » .^(٣) لما امتازت به معاصرهما من النظافة وحسن الصنعة والتأنق في الآلة . واختصّ به باعتهما وسقتهما من البقاية والملاحة في الحانات والملابس . وطهارة الدنان والمبازل والكؤوس . ولذلك لما اراد الواثق بالله الخليفة العباسي ان يعقد حانتين له وابطانتيه احدهما في دار الحرم ، والاخرى على شط دجلة ، « امر ان يُختار له خمار نظيف جميل المنظر حاذق بامر الشراب . ولا يكون الا نصرانياً من اهل قطر بُل . فأُتي بنصراني لسه ابدان مليحان وابنتان بهذه الصفة . فجعلهم الواثق في الحانتين . وضم اليهم خدماً وغلماًنا وجواري رومية . واخدم النساء حانة الحرم . والرجال حانة الشط » .^(٤) وكذلك فعل الوزير المهلبى لما زاره صاحب بن عباد ووصف اجتماعه به في كتاب كتبه لابن العميد وقال في جملة ملاحه واخباره « وعلى ذكر عكبرا حضرنا مع الاستاذ ابي محمد (المهلبى) ايده الله تعالى بها . فاستدعى دنأ للوقت . وخمارة للدير . وريحاناً من الحانة . واقترح غناء من الماخور واخذنا في فنّ من الانحلال عجيب » .^(٥)

ولهذه الاسباب اتهم الخليفة عمر بن عبد العزيز النصارى خاصة بإضلال المسلمين واغرائهم بالشرب في كتاب انفذه الى عامله على مصر ايوب بن

(١) تباشير الشراب لابن المعتز . باريس ٣٢٩٩ ، ص ٢٦

(٢) فوات الوفيات لابن شاکر الکتبي ج ٢ : ٢٥٠ .

(٣) مسالك الابصار . خزائن باريس ٢٣٢٥ ، ص ٢٠٨

(٤) مسالك الابصار . طبعة مصر ، ١ : ٢٩٣

(٥) بتيمة الدهر للشعالبي ، طبعة دمشق ، ١٣ : ٢

شرحبيل واهل مصر في النهي عن الخمر فحُرمَت وكُثِرَت آلاتها وُعْطِلَت حاناتها.^(١) وكان الناس منذ عهد الخلفاء الراشدين يشربون الطَّلَاء وهو العصير المطبوخ الذي ذهب ثلثاه وبقي ثلثه . قيل سمي بذلك لانه شبيه بطلاء الابل في ثُخنه وسواده . وحجتهم في ذلك ما رُوي من ان عمر بن الخطاب كتب الى بعض عماله ان اُرزق المسلمين من الطَّلَاء ما ذهب ثلثاه وبقي ثلثه . وحكي ان ابا موسى الاشعري و ابا الدرداء كانا يشربان من الطَّلَاء ما ذهب ثلثاه وبقي ثلثه.^(٢) وكذلك كان يفعل زيد بن سهل الانصاري ، ومعاذ بن جبل الانصاري ، وابو عبيدة ابن الجراح.^(٣) قال ابو العلاء : «والمطبوخ وان اسكر فهو جار مجرى الخمر . على ان كثيراً من الفقهاء قد شربوا الجمهوري والبختج والمنصف»^(٤) وهذه الانواع من عصير العنب المطبوخ . وقيل للاول منها الجمهوري لان جمهور الناس اي اكثرهم يستعملونه .

ومع ان عمر بن عبد العزيز كان ممن رخص قبلاً في مثل هذا الطَّلَاء ،^(٥) كتب الى ايوب بن شرحبيل يقول :

« يقولون ان الطَّلَاء لا بأس علينا في شربه . ولعمري ان ما قرب الى الخمر في مطعمهم او شرب او غير ذلك لِيُنْتَقَى . وما يشرب اوائك شراهم الذي يستحئون الا من تحت ايدي النصارى الذين يهون عليهم زيغ المسلمين في دينهم . ودخولهم في ما لا يحل لهم . مع الذي يجمع نفاق سلعهم ويسارة المؤونة عليهم .»^(٦)

ومن الثابت المحقق اليوم ان عمر بن عبد العزيز هو اول خليفة في الاسلام نظر شزداً الى المسيحيين وابتدع ، قبل المتوكل على الله ، اول خطة لاذلالهم وحرمانهم وعسفهم.^(٧) خلافاً للرأي الشائع منذ القرن الخامس للهجرة بنسبة مجموع

(١) تاريخ مصر وولاتها للكندي ، ص ٦٨

(٢) نهاية الارب للنويري ٨٢ : ٤

(٣) تهذيب ابن عساكر ٤ : ٦

(٤) رسالة الغفران ، ص ١٧٦

(٥) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم ، ص ١٠٢

(٦) نهاية الارب للنويري ٨٢ : ٤

(٧) سيرة عمر بن عبد العزيز ، ص ١٠٢

هذه المظالم المعروفة بالشروط العمرية لعمر بن الخطاب . فلا بدع من ثم اذا اراد تأنيب النصارى لا يثار المسلمين شرب خمرهم واستطابتهم لها . وقد شهد حين كان عامل المدينة تهتك بعض اولاد الخلفاء الراشدين والانصار والاشراف بالسكر في المنازل والاندية وحانات اليهود والمسلمين . حتى اشتهر حب الانصار المسطار وهي الحمرة الصارعة لشاربها . ولذلك وصفهم الاخطل بقوله :

قوم اذا هدر العصير رأيهم نُحْمَرًا عيونهم من المسطار (١)

وكان عمر لا يجهل ايضاً ان اول مولع بها ، مدافع عن حليها ، ومثيب على حسن اختيارها ، هم اهل بيته واكثر بطانته . وانهم كانوا لا يرون اقل حرج في تناولها وانتجاع حوانيتها . ولا يتكتمون في المنادمة عليها ولسان حالهم ينشد لجليسهم قول الحسن بن هانى :

خذها على دين المسيح ، اذا نعى عن شربها دين النبي محمد

وقد قصد الوليد بن يزيد بن عبد الملك الحيرة من اجلها في طلب خمار في دير حنة وصف له بجودة الشراب ونظافة الانية وملاحة الحانة . واستسقاء اربعة ارطال وهبه عليها اربعمائة دينار .^(٢) وقد اشار الجاحظ الى ولع الخلفاء الامويين والعباسيين بالشرب . وعين الايام التي كان كل واحد منهم يخصصها للهو وسكره . وعد منهم يزيد بن معاوية . وعبد الملك بن مروان . والوليد وسليمان وهشام ابنا عبد الملك . ويزيد بن الوليد . والوليد بن يزيد . ومروان بن محمد من الامويين . واما العباس السفاح . والمهدي . والهادي . والرشيد . والمأمون . والمعتصم . والواثق من العباسيين في ايامه . ولما ذكر عبد الملك بن مروان قال انه كان يسكر في كل شهر مرة حتى لا يعقل أفي السماء هو او في الارض^(٣) . وقال ان المأمون كان في اول ايامه يشرب الثلاثة والجمعة . ثم ادمن الشرب عند خروجه الى الشام في

(١) الاغانى ، طبعة بولاق ، ١٣ : ١٤٨

(٢) مسالك الابصار ١ : ٢٣١

(٣) في متن الجاحظ المطبوع « أ في السماء هو او في الماء » والاصح ما اثبتناه . وقد اشار الى هذا المعنى ابن عنين بقوله في صفة الخمر :

كُتِبَتْ اذا ما نلت منها ثلثة رأيت السما كالارض والارض كالسما

سنة خمس عشرة ومائتين (٨٣٠ م) الى ان توفي.^(١)
 فهل كان كل هؤلاء الخلفاء يشربون تحت ايدي النصارى . ام هل كان
 النصارى مسؤولين عن شهوات ملوكهم
 عنب وخمر في الاناء وشارب فن الملوأ أعاصر^(٢) ام حاس^(٣)
 وناهيك ان النصارى لم يكونوا منفردين ببيع الاشربة والمسكرات في
 الاسلام . بل كان ، فيما خلا اليهود والمجوس ، قوم من المسلمين ايضاً لا يتورعون
 من بيعها في الحانات . اشتهر منهم ابن بجرة بالطائف وهو الذي قال فيه ابو ذؤيب
 الهذلي :

ولو ان ما عند ابن بجرة عندها من الخمر لم تبل لهاقي بناطل^(٤)
 ومن النكت التي يجدر ايرادها هنا ما رواه الشاشتي قال : « ذكر ابو الشبل
 البرجمي قال : صرت انا ومحمود الى قطربل فدعونا خماراً فقلنا : اثنا بينت عشر
 قد انضجها الهجير . فجاءنا بها . فقلنا اسقنا . فسقانا . فقلنا اشرب واسقنا . فقال انا
 مسلم . وكان يهودياً قد اسلم . فقال لي محمود : قوم يكون الخمار عندهم مسلماً
 متخرجاً . وهم عند الخمار كفار . ترى لله فيهم حاجة . »^(٥) ومن البديهي ان اليهودي
 بعد اسلامه لم يبق خماراً ولم يستجز بيع الشراب الا لمعرفة ان في الحانات
 نظراً له من المسلمين لا بأس عليه في الاحتذاء بهم . ولذلك لم يبعد الامام ابو
 حنيفة في النظر والاجتهاد حين اجاز بعد ذلك شرب المثالث والمربع في عصر
 كان الخلفاء العباسيون انفسهم ، وهم الائمة الذين بهم يهتدى وبسيرتهم يقتدى ،
 يجهرون بشرب الخمر والانبذة في مجالس حافلة بوجوه الدولة واشرافها وعلمائها .
 ويعقدون من اجلها الحانات حتى في دار حرم الخلافة كما تقدم من اخبار الواثق
 بالله . خلافاً لدعوى ابن خلدون في تبرئتهم من معاقرة الخمر والاقتصار بهم على
 شرب نبيذ التمر .^(٦) وقد صرح المؤرخون والادباء غير مرة بان الشراب الذي كان

(١) كتاب التاج ، ص ١٥٢-١٥٣

(٢) لزوميات ابي الملا ، ص ٣٠٣

(٣) الاغاني ، طبعة بولاق ، ٦ : ٦٠

(٤) الديارات للشاشتي ، ص ٢٠-٢١

(٥) المقدمة ، طبعة بولاق ، ص ١٥-١٦

يتناولوه الخلفاء في بعض مجالسهم ولا سيما في اسفارهم وزياراتهم الاديار النصرانية كان عصير الكرم . وسماه ابن المعتز في شعر له سيمراً بنا قريباً « شراب القربان » وهو لا يحتمل اقل تأويل . ولا يخفى على احد محل ابن المعتز في بيت الخلافة فهو ادري من ابن خلدون بما كان يشربه اهل بيته . وروى المسعودي عن ابي الحسن العروضي ، مؤدب اولاد الخليفة الراضي بالله ، انه دخل على الراضي يوماً فوجده خالياً بنفسه مغموماً . فجعل يسليه . ثم قال له : يمتع الله امير المؤمنين ان يكون كالمؤمن في هذا الوقت حيث يقول :

صل الندمان يوم المهرجان بضاف من معتقة الدنان
بكأس خسرواني عتيق فان العيد خسرواني
وجتني الزبيبتين طراً فشان ذوي الزيب خلاف شاني
فاشربا وازعما حراماً وارجو عفورب ذي امتنان
ويشربا وبزهما حلالاً وتلك على الشقي خطيئتان (١)

وحسبنا ان نشير هنا الى ما اخبر به ابن حمدون من زيارة المتوكل على الله لدير صليبا بدمشق ومنادته لشعازين ابنة قس الدير . قال : ثم جاء ابوها بشراب من بيت القربان ذكر المتوكل انه لم ير مثله قط فشرب وشربت معه (٢) . ومعلوم ان خمر القربان لا تكون حتماً الا من العنب .

ولبعض الشعراء ابيات في حلّ الاخذ من كل ملاذ الحياة وشهواتها . والاحتجاج لها بمذهب من مذاهب الائمة الاربعة قال فيها :

الشافعي من الائمة قائل اللعب بالشطرنج غير حرام
وابو حنيفة قال ، وهو مصدق في كل ما يروي من الاحكام ،
شرب المثلث والمربع جائز فاشرب على امن من الآثام

وقد اشتهر ابو حنيفة بمذهبه هذا حتى بلغت شهرته في هذا الباب اقاصي المغرب والاندلس ، وصح معها لابن عبد ربّه الاندلسي ان يقول مشيراً اليه :
ديننا في السماع دين مديني وفي شربنا الشراب عراقي (٣)

وقبله قال الحسن بن هانئ يعني ابا حنيفة والشافعي :

(١) مروج الذهب ، بجامش نفح الطيب ، ٤١٨ : ٣

(٢) الخزائن الشرقية ١٥ : ٢ ، والمشرق ٣٥ [١٩٣٧] ٢٧

(٣) بتيمة الدهر للثعالي ٨ : ٢

اباح العراقي النبيذ وشربه وقال حرامان المدامة والسكر
وقال المجازي الشرابان واحد فحلت لنا ما بين قولها الخمر
ولو شئنا ان نزوي كل ما قيل في الاسلام في اطراء الخمر النصرانية
ومعتقدات الديارات لطال بنا سياق الابيات . ومن اغربها ما قاله فيها احد ثلاثة
الشعراء ، وهو تاج الدين محمد بن حواري من قصيدة مدح بها الملك الناصر سنة
٦٤٦ (١٢٤٨/٩ م).

هذي المدام التي كانت معتقة من قبل ما سست الارض السماوات
صلوا لها ، فلقد صلت لها أمم اضحوا عكوفاً عليها مثل ما باتوا (١)
واحسن منه قول الشهاب التلعفري وفيه نظر الى خمر القربان :
عُج حيث تسمع اصوات النواقيس من جانب الدير تحت الليل بالعيش
مستغبراً عن كميت اللون صافية قد عتقتها اناس في النواويس
مرّ الرمان عليها فهو يخبر عن ما كان من آدم قدماً وابليس
ترى الرهايين صرعى من مهابتها اذا بدت بين شمس وقسيس
تثلي الاناجيل تعظيماً اذا حضرت لها باشراف تسبيح وتقديس
لها احاديث ترويحاً اذا مزجت في كأسها عن سليمان وبلقيس
لو ذاق منها غزال السرب مضضاً لحاف مرّ سواه ضيفم الخيس
يسمى بها من نصارى الدير بدر دجى عيس في فتية مثل الطواويس
فاصرف لها صرف خطب الدهر مقتنماً ونادم الشمس مع تلك الشماميس (٢)

وقد وصف الشعراء في خمرياتهم رهبان النصارى وقسيسيههم باعتصار بنت
الكروم والهيمنة حول دَنِّها بالصاوات وتلاوة المزامير . وهو قول عبد الصمد بن
بابك في « عيسوية » الخمر وتعليل الكؤوس « المزنة » :
فَيَنْتَمِ القس حولها وتفق بمزامير دَنِّها المزار
ثم لا انتهت الى دين عيسى شُدَّ في حقو كأسها زنار (٣)

وفي ضد ذلك احتج الاديب علي بن محمد المعروف بالاعمى الدمشقي
الاصل . المصري المولد . الحراساني الدار . بعث القسيس بدن الخمر في ما زعمه من

- (١) عيون التواريخ للكتبي ٢٠ : ٢٢٧-٢٢٨ ، الخزانة التيسورية .
- (٢) ديوان التلعفري . القاتكان رقم ٣٦٠ ، ولهذه الابيات رواية اخرى محرفة وردت
في المشرق (١٩٠٣/٥ ص ٤٥٦) منسوبة غلطاً لبعض النصارى .
- (٣) ديوان عبدالله بن المعتز ، رواية الصولي ، باريس ٣٠٨٧ ، ص ١١٧

تفضيل الحشيشة عليها وقال :

وفيها معانٍ ليس في الخمر مثلها فلا تستمع فيها مقال مفند
هي البكر لم تُنكح بماء سحابة ولا عُصرت يوماً برجل ولا يد
ولا عبث القسيس يوماً بدنتها ولا قرَّبوا من حانها كل واحد (١)

ومن طرائف الصفات النصرانية التي تفننوا باطلاقتها على خمر الديارات
« شراب القربان ». قال عبدالله بن المعتز :

اسكنوها في الدنّ من عهد نوح كظلام فيه نهار حبيس...
من شراب القربان يوصي بها السما سُ خزانَ ينثها والقسوس (٢)

ومنها « بنت المذابح والقسوس ». قال عبد السلام بن رعبان المعروف بديك
الجن :

تسفيك كأس مدامة من كفها محزوجة بدمامة من ثغرها
بنت المذابح والقسوس كريمة لا يستجى يوم الحساب بوزرها (٣)
ومنها « ام الرهايين وبنت الديور » في قول حسام الدين الحاجري :
واستجلبها عذراء مشمولة ام الرهايين وبنت الديور (٤)
ومنها « ديرية . وراهيية ». قال البغاء من ابيات في دير الزعفران :
ولما دجا الليل استعاد سنا الضحى براح نأت بالليل عن ظلماته
نصيبة ديرية كاد كرمها بجوهرها ينهل قبل نباته (٥)

وقال الثرواني من ابيات في قلالية القس :

فن قهوة حبرية راهيية عتيقة خمس او تزيد على خمس (٦)

ومنها « بنت قسيس ». قال علي بن اسماعيل من شعراء الخريدة من قصيدة :
قم قبل تأذين النواقيس واجل علينا بنت قسيس (٧)

ومنها « ابنة المطران » في قول صدر الدين بن الوكيل :

ودارت علينا الخمر حتى غلكت عقول رجال مثلها ليس يملك

(١) راحة الارواح في الحشيش والراح لتقي الدين البدرى ، باريس ٣٥٤٤ ، ص ١١٧

(٢) ديوان عبدالله بن المعتز المذكور اعلاه ، ص ١٠٩

(٣) تباشير الشراب لابن المعتز . باريس ٣٢٩٩ ، ص ١٢

(٤) حديقة الافراح للثرواني ص ١٤٩

(٥) عيون التواريخ للكتبي ، الخزانة التيمورية ، ص ٢٠٢

(٦) مسالك الابصار ، ص ٣١٩

(٧) خريدة القصر للعماد الكاتب . باريس ٣٣٢٨ ، ص ١٢٥

فلما رأيت القوم بالكأسُ صرّعوا وان ابنة المطران بالقوم تفتك
أرقت دم الراوق حلاً لاني رأيت صليبا فوقه فهو مشرك (١)
وسمّاها سبط ابن التعاويذي مرة « بنت الشامس والاساقف » في قصيدة
مدح بها الخليفة المستضيء بامر الله وقال منها:

قم يا ندي ملبيا داعي الصبوح ولا تخالف
فاستجلبها كرخية بنت الشامس والاساقف

وقال فيها مرة اخرى:

حمرآء تجلو ظلم الاغباس « ربيعة القسيس والشامس » (٢)

ودعاها شرف الدين بن المستوفي الاربلي المتوفى سنة ٦٣٧ للهجرة « ذخيرة
شامس وقيس » بقوله:

قم فاسقنيها على صوت النواقيس خمرآ ذخيرة شامس وقيس (٣)
وهلم جراً من امثال هذه النعوت النصرانية .

ومن الديار التي اشتهرت خصوصاً بجودة خمرها . وكانت مقصداً للتجار
ومحطاً للقوافل تنقل منها زقاق الشراب الى كل الانحاء والاقطار . دير ابا يوسف
قريباً من بلد — مدينة قديمة فوق الموصل — كانت القوافل كل يوم « تحط »
عنده لتأخذ خمرآ . والمجان تقصده للتزده فيه بطنابيرهم وعيدانهم وسائر
ملاهيهم .^(١) ومنها عمر الزعفران « شرابه معروف 'يحمل الى نصيبين وغيرها » .^(٢)
ومنها عمر احويشا وهو « في نهاية العبارة وحسن المواقع وكثرة الفواكه والخمور .
ويحمل منه الى اسعرت وارزن » .^(٣) ومنها دير العذارى بجانب العلك بين سامرا
وبغداد . ودير سابر في الجانب الغربي من دجلة . ودير جرجس بالمرزفة على شاطئ .
دجلة ودير سرجيس بطيرناباذ بين الكوفة والقادسية . ودير زرارة بين الكوفة وحمام

(١) النهج السيد الفضل بن ابي الفضائل . باريس ١٩٢٥ ، ص ١٨٢

(٢) ديوانه ، ص ٢٨٢ و ٤٨٥

(٣) جزء من تاريخ في المكتبة الاحمدية بحلب منسوب للصالح الصفدي

(٤) مسالك الابصار ، ص ٢٠٣

(٥) الديارات للشابشي ، ص ٨٢

(٦) الديارات للشابشي ، ص ٨٦

اعين . ودير اشموني بقطرُبل . ودير قوطا بالبردان على شاطئ دجلة .^(١) ودير الطور ما بين طبرية واللجون . «وحوله كروم يعتصرونها فالشراب عندهم كثير» .^(٢) ويُنسب الى دير اكمن او اكمل على راس جبل بالقرب من الجودي الخمر الموصوف . فهو النهاية في الجودة . وقيل انه لا يورث الخمار .^(٣) وهو من اغرب المزاعم التي اطرات شهرة الخمر النصرانية . وبالأجمال ندر ان يكون دير من الاديار غير مختص بنوع من الاشربة يُتَّجر بها . ومنها في الغالب كان اكثر انتفاع الوهبان ، في ما خلا الاثمار والياحين والازهار .

(١) مسالك الابصار ، ص ٢٥٨ ؛ وديارات الشاشي ، ص ٢١ ، و ٢٧ ، و ١٠٢ ، و ١٠٧ .

١٨-١٩

(٢) معجم البلدان ٢ : ٦٧٥

(٣) معجم البلدان ، طبعة مصر ١٩٠٦ ، ١٢٤ : ٤

التحايا

التحايا جمع تحية بمعنى التحفة والطرفة . وهي على هذا الوجه غير واردة في معاجم اللغة . وفي الشابشتي في كلامه على دير درمالس (رومانس) « حضر من احداث الموضوع من كان يقضي لنا الحاجة ويحيئنا بالطرفة والتحية »^(١) واكثر ما تطلق على الطاقة من الازهار والرياحين التي يُحيّا بها الندماء . وتُزيّن بها مجالس الشراب { ومنها بيت الثرواني :

وان اتما حبيتي تحية فلا تعدوا ربحان قلّاية النفس^(٢)

ونظيره قول ابي الفرج البغواء في النرجس :

ونرجس لم يعد مبيض الكأس ، ولا اصفره الراحا
كأنما تهدي التحايا به لطفاً الى الارواح ارواحا^(٣)

وفي هذا المعنى لابي اسحق الصابي يصف مجلس أنس شبيهه بالمعركة :

كان رجوم تحاياهم سهام على الجيش منها نثار^(٤)

وفي الاغاني لابي الفرج الاصبهاني : « قالت ريق كنت يوماً بين يدي الرشيد وعنده اخوه منصور وهما يشربان . فدخلت اليه خلوب جارية لعلية (اخت الرشيد) ومعها كأسان مملوءتان وتحيتان . ومع خادم يتبعها عود فغنتها قائدة . والكأسان في ايديهما . والتحيتان بين ايديهما »^(٥)

ولمحمد بن بشير يهجو يوسف بن جعفر بن سليمان :

ربحانه بدم الشباب ملطّخ وتحية الندمان لعلم العين^(٦)

ولما خرج المأمون ونزل الدير الاعلى بالموصل وجاء عيد الشعانين « زُين الدير

في ذلك اليوم باحسن زي . وخرج رهبانه وقساّنه الى المذبح وحولهم فتيانهم

(١) الديارات للشابشتي ، ص ٢

(٢) معجم البلدان ١٥٦ : ٤

(٣) البتية للثعالي ، طبعة مصر ، ١ : ٢٢٨

(٤) البتية للثعالي ، طبعة مصر ، ٢ : ٢٢٧

(٥) الاغاني ٩ : ٨٧-٨٨

(٦) الاغاني ١٢ : ١٣٤

بايديهم المجامر قد تقلدوا الصلبان وتوشحوا بالمناديل المنقوشة . فرأى المأمون ذلك فاستحسنه . ثم انصرف القوم الى قلاليتهم وقربانهم . وعطف الى المأمون من كان معهم من الجواري والعلماء بيد كل منهم تحية من رباحين وقتهم . وبايدي جماعة منهم كؤوس فيها انواع الشراب . فادناهم وجعل يأخذ من هذا ومن هذه تحية وقد شغف بما رآه منهم .^(١)

ومن شواهد اطلاق التحايا على هدايا الفواكه والتفاح قول ابي خالد الكاتب وقد اجتاز بدير محلي ومعه ابو زرعة الدمشقي الشاعر : « ثم اتانا الراهبان بتهايا النورود والياسمين والتفاح واخرجوا الينا شراباً عتيقاً في نهاية الصفاء والروقة . »^(٢) ومثله ما رواه ابن عبد ربه عن الفضل بن يحيى ان طفلياً من اهل المدينة دخل عليه ويبيد الفضل بن يحيى تفاحة « فالتقاها اليه وقال : حيأك الله يا مدني . فكزماها واكلها . فقال له : شؤم عليك يا مدني . أتأكل التحيات . »^(٣)

وكان في الحيرة غلمان يرتقون من حمل الفاكهة وبيع التحيات . منهم حنين ابن بلوع المغني المشهور « قيل كان لطيفاً في عمل التحيات . فكان اذا حمل الرياحين الى بيوت الفتيان ومياسير اهل الكوفة واصحاب القيان والمتطربين الى الحيرة ورأوا رشاقتهم وحسن قدّه وحالاته وخفة روحه استحاوه واقام عندهم وخفّ لهم . »^(٤)

وقد يراد بالتحية مجرد الهدية من الطرائف والنفائس : « حدث سعيد بن يوسف قال : كنت اتقلد خزائن الكسوة . وكان اذا امر المعتز ليونس (بن بَغَا) بشي . اخذت له اجلّ ما في الخزائن واحسنه . . . فقلت له يوماً : يا سيدي انا عبدك وموفر لمالك . وانت تشرف مسروراً المعتصمي بالتحية الحسنة مما يكون بين يدي امير المؤمنين . وانا فلا تشرفني بمثل ذلك . فقال الليلة نوبتك . »^(٥)

(١) الديارات للشابشي ، ص ٧٦

(٢) ممالك الابصار ، ص ٢٢١

(٣) العقد الفريد . المطبعة الازهرية . مصر سنة ١٢٢١ ، ٢ : ٢٧٩

(٤) الاغانى ، طبعة الدار ، ٢ : ٢٤٥

(٥) الديارات للشابشي ، ص ٧٢

وكان يقال قديماً لمثل هذه التحيات التي يُزيّن بها مجالس الشراب العِارة والعمار. وفسروا بها في احد الوجهين قول الاعشى:

فلما اتانا بُعِد الكرى سجدنا له ورفعنا العارا (١)

قال ابن منظور: «العمار هنا الريحان يُزيّن به مجلس الشراب وتسميه الفرس مبوران. فاذا دخل عليهم داخل رفعوا شيئاً منه بأيديهم وحيّوه به.» (٢) ومن هنا يُعلم ان عادة اتخاذ الورود والرياحين للشرب عليها والتحية بها كانت في الجاهلية وسبقت الاسلام. ومنها قول النابغة الذبياني في مدح آل جفنة النصارى:

رفاق النعال طيّبٌ حُجْزاًخُمٌ يُحيّون بالريحان يوم السباسب

اي يوم الشعانين. ولاعشى قيس في قصيدته «وَدَّرَ هريرة ان الركب مرتحل» ابیات ذكر فيها غدوه الى الحانوت اي بيت الحمّار :

في فتية كسيوف الهند قد علموا ان ليس يدفع عن ذي الحيلة الحيل

واتبعها بقوله :

نازعتم قُضْبُ الریحان متكئاً وقهوة مزّة راووقها خَضَل (٣)

وله ايضاً يصف مجلس الشراب :

وشاهدنا الورد والياسمين والمسمعات بقصّأها (٤)

وفي حديث حسن بن ثابت ان جبلة بن الایهم كان « اذا جلس للشراب فرش تحته الآس والورد والياسمين واصناف الرياحين.» (٥)

ولابن سميحان من شعراء الاغاني :

أُمِّي أعاطيه كَأْساً لَدَى مشرجها كالملك حُفَّت بنسرين وريحان (٦)

ولم يكن مثل هذا التجميل بالرياحين والازهار وطرحها على بساط المدام نصيب الاغنياء والمترفين فقط . بل اصبح في الاسلام رسماً للفتوة لا يخلّ به اشقى الفقراء والمعدمين. روى ابو الفرج الاصبهاني قال: « دعا الاخطل شاب من

(١) نكت الحميان للصفدي ، ص ٧

(٢) لسان العرب ٦ : ٢٨٢

(٣) الاغاني ٨ : ٩٩

(٤) التذكرة الحمدونية . باريس رقم ٣٣٢٤ ، ص ١٠٥

(٥) التذكرة الحمدونية . باريس رقم ٣٣٢٤ ، ص ١٠٧

(٦) الاغاني ، طبعة الدار ، ٢ : ٢٦٠

شباب اهل الكوفة الى منزله فقال له: يا ابن اخي انت لا تحمل المؤونة وليس عندك معتمد، فلم يزل به حتى انتجعه فاتى الباب فقال يا شقراء . فخرجت اليه امرأة، فقال لأمه: هذا ابو مالك قد اتاني، فباعت غزلاً لها واشترت له لحماً ونيذاً وريحاناً، فدخل خُصاً لها فأكل معه وشرب، وقال في ذلك شعراً^(١):

وفي حديث علي بن امية قال: دخلت يوماً على عمر الميداني، وكان له بقال على باب داره ينادمه ولا يفارقه ويقارضه اذا اعسر... فقال لنا عمر: معي اربعة دراهم تعطوني منها لعلقي حماري درهماً والثلاثة لكم فكلوا بها ما احببتم . وعندي نبيذ وانا اغتنيكم . والبقال يحضرنا من الابقال اليابسة في حانوته . فوجهنا بالبقال فاشترى لنا بدرهم فاكهة وريحاناً، وجاءنا من حانوته بجوائح السكباج ونقل^(٢) . وقد بلغت عادة التحيات في الاسلام الغاية من البذخ والترف . فكان الخلفاء والوزراء ووجوه الدولة يتفتنون في تزيين مجالس شرايهم باطاييب الفواكه ونوادير الرياحين والورود، ويغالون في الانفاق والتبذير، كما حكاه ابو جعفر بن حمدون وهو شاهد عيان، قال :

« كنا نشرب مع الراضي بالله يوماً في مجلس منمى بالفاكهة الحسنة الفاخرة . فعرض بالجلوس فقال : افرشوا لنا المجلس الفلاني واطرحوا فيه ريحاناً ونيافراً فقط . طرْحاً فوق الحصر بلا اطباق ولا تعبئة في مشام كما تفعل العامة . وعجلوا ذلك الساعة لننتقل اليه . قال فلم تكن الا لحظة حتى قالوا له قد فرغنا من ذلك . فقال لنا قوموا . فقمنا معه . فلما رأى المجلس قال للشرايئة: غيروا لون هذا الريحان بشي . من الكافور يسحق ويُطرح فوق . فليس هو مليح هكذا . قال فاقبلوا يخيئون بصواني الذهب فيها الكافور الرباعي المسحوق اربطاً ويطرح فوق الريحان وهو يستزيدهم الى ان صار الريحان كالمغطى ببياض الكافور . وكأنه ثوب اخضر قد نُدف عليه قطن رقيق . او روضة سقط عليها ضرائب الثلج . فقال حينئذ: حسبكم . قال فقدرت ما استعمل من الكافور كان اكثر من الف مثقال بشي . كثير . فشربنا عليه . فلما قام امر بنهبه . فاخذ غلماناً منه مشاقيل كثيرة لانهم

(١) الاغانى ، طبعة بولاق ، ١٨٥: ٧

(٢) الاغانى ، طبعة بولاق ، ٦٦: ٢٠

كانوا في جملة الخدم والفراشين والعلماء الذين نهبوا ذلك .^(١)
وروى القاضي ابو علي التنوخي قال : « شاهدنا نحن ابا محمد المهلب في وزارته
وقد اشترى في ثلاثة ايام متتابة ورداً بالف دينار فطرح في بركة عظيمة
كانت له في دار كبيرة تعرف بدار البركة . وشرب عليه ونهب . وكان في
البركة فؤارة حسنة فطرح الورد فيها وفرشه في مجالسه . وكان لذلك شرح
طويل . وشرب ابو القاسم بن ابي عبدالله البريدي بالبصرة على ورد بعشرين
الف درهم في يوم واحد على رخصه هناك واسترخا ص السلطان لما يشتهي .^(٢)
ومن اغرب ما كان يُتخذ من الرياحين والازهار في مجالس الشراب والحانات
قُضِب كانت تجعل خلف آذان السقاة والشاربين . او تُعقد منها اكاليل توضع
فوق رؤوسهم . ولذلك قال ابو دلف العجلي مقتضراً :

يوماً تراني على طمير نرهني الأجل الرواسي
ويوم لهُ احث كاساً وخلف اذني قضيب آس (٣)

ومثله قول ابن المعتز في وصف ساق :
وطاف بها ساق اديب بمنزل كخنجر عيار صناعته الفتك
وحمل آذريونه فوق اذنه ككأس عقيق في قرارها مسك (٤)
وله ايضاً في الساق المكلل بالأس المرصع بصنوف الرياح :
عليه اكليل آس فوق مفرقه قد رضعوه بانواع الرياحين (٥)
وقد جمع ابو نواس بين « تحيآت الندامى » و « اكاليل الرياحين » فقال :
الذواشي من قراع الكتاب مصافحة الطامات من كل جانب
واخذ تحيآت الندامى وردّها بترحيب انس من حبيب وصاحب
ولبس اكليل الرياحين معهم وإنصات آذان الى شدة ضارب (٦)
وله ايضاً في الاكليل او التاج :

(١) نشوار المحاضرة للتنوخي ، ص ١٤٤-١٤٥

(٢) نشوار المحاضرة للتنوخي ، ص ١٤٧

(٣) مروج الذهب ، جامش نفح العليب ، ٣ : ٣٠٤

(٤) ديوانه . باريس رقم ٣٠٨٧ ، ص ١١٢

(٥) ديوانه . باريس رقم ٣٠٨٧ ، ص ١١٧

(٦) ديوانه . باريس رقم ٤٨٣١ ، ص ١٠٥

كأنَّ اكليله تاج ابن مارية اذراح معتصباً بالورد والآس (١)
ومثله قوله في وصف ساق .

يدور بها ظيُّ غربرٍ متوجٍّ بتاج من الريحان ملك القراطق (٢)
وله في ريحانة الاذن :

احسن عندي من انكبابك بالفهرس ملجأً به على وتد
وقوف ريحانة على اذن وسير كأس الى فم يبد (٣)
ونظيره قوله في ورد الآذريون :

بيدي ساقٍ عليه حلة من ياسمين
وعلى الاذنين منه وردنا آذريون (٤)

ولابي بكر الصنوبري من ابيات :

لا اشرب الكأس الا من يدي رشاً مبهف كفضيب البان مياس
مورّد الخد في قمص موردة له من الآس اكليل على الراس (٥)
ومن اصدق تشبيهات التحيات في «اكليل الرياحين» قول ابي عثمان الخالدي
في وصف مجلس انس حضره :

والحمر تجلى على خطأها فخرى عرائس الكرم قد رُقّت لازواج
وكلنا من اكليل البهار على رؤوسنا، كانوا شروان في التاج (٦)

وفي لسان العرب ان مثل هذه الاكليل التي اتخذها العرب عن العجم كانت
تسمى العمار^(٧) .

وقد اشتهر الواثق بالله بحب المواخير وعقده حانتين احدهما في دار الحرم
والاخرى على الشط . فلما فرغ منهما امر باحضار المغنين والجلساء والدنان « وكان
يوضع على رأس الحضور اكليل الآس وما اشبه من الرياحين . »^(٨)
ومما تقدم تبين حاجة الرهبان الى الإكثار من زراعة الورد والريحان
والفواكه لبيعها في التجايا وأصناف النقول في الحانات اللاحقة بالديارات .

(١) ديوانه ، طبعة مصر سنة ١٨٩٨ ، ص ٢٩٧

(٢) ديوانه ، طبعة مصر سنة ١٨٩٨ ، ص ٢٠٧

(٣) خزائن الفنانين رقم ٤٥٦ ، ص ١٠٥ (٤) ديوانه ، طبعة مصر ، ص ٣٣٩

(٥) معجم البلدان ١ : ٦٦٨ (٦) يثيمة الدهر ، طبعة مصر ، ١٨٦ : ٢

(٧) لسان العرب ٣ : ٤٢٠ (٨) مسالك الابصار ، ص ٢٤٩

الزعفران

هو النبات المعروف . وزهره احمر الى الصفرة ، ذكي الرائحة . وكان يُتخذ للصيغ والدواء والطيب . وله في الشعر والحديث ودواوين اللغة عدة اسماء ومرادفات ، بينها المأنوس والوحشي :

١ الجاديّ والجاديا . قال الزمخشري : « نُسب الى الجادية ، وهي من اعمال البلقاء . سمعت من يقول ارض البلقاء تلد الزعفران . »^(١) قال بشار
باكرنَ عطر لطيفة ونمسن في الجاديّ نمساً (٢)
٢ الجسد والجساد . يقال ثوب مُجسّد ومُجسّد مصبوغ بالزعفران .^(٣) ومنه
لا تخرجن الى المساجد في المجاسد .^(٤)

٣ الرادين . يقال احمر رادني اذا خالطت حمرة صفرة كاللورس .
٤ الردع . او هو لطح من الزعفران . وفي حديث عائشة : كَفِنَ ابو بكر في ثلاث اثواب . احد ثيابه ردع من زعفران ، اي لطح لم يعمّه كله . ويقال قميص رادع ومردوع ومردّع : فيه اثر طيب او زعفران .^(٥)

٥ الرَيِّقان . والرقان والرقون . قال :
وَسَمِعَ اذا ما شت غنّت مضمخة التراب بالرقان (٦)
٦ الزرنب . وفي حديث ام زرع : المسّ مسّ ارنب . والريح ريح زرنب .
قال ابن الاثير في تفسيره هو الزعفران^(٧)

٧ الحَصّ ومنه في احد القولين بيت عمرو بن كلثوم في الحمرة :
مشعّمة كأن الحَصّ فيها اذا ما الماء خالطها سخينا

(١) اساس البلاغة ، طبعة الدار ، ١ : ١٦٣

(٢) الاغانى ، طبعة الدار ، ٣ : ١٦٩

(٣) التاج ٢ : ٢٣٠

(٤) اساس البلاغة ١ : ١٢٤

(٥) التاج ٥ : ٢٥٢-٢٥٣

(٦) التاج ٩ : ٢١٨

(٧) التاج ١ : ٢٨٧

ومثله قول الاعشى في التشبيه: كأنه « يُطَلَّى بِحَسٍّ أو يَغَشَّى بِغُظْلَمٍ »^(١)
 ٨ العبير . قيل هو اخلاط من الطيب تُجمع بالزعفران . وقيل هو الزعفران
 وحده . قال الاعشى :
 وتبرد برد رداء العرو س ، في الصيف ، رقرقت فيه العبير
 ولاي ذؤيب :

وسرب تطلَّى بالعبير ، كأنه دماء طباء بالبخور ذبيح^(٢)
 ويظهر ان اول من صبغ ثوبه بالزعفران من العرب عامر بن جشم بن حبيب فلقب
 به وقيل له : ذو المجاسد .^(٣) واقتدى به سائر العرب . وعمر صبغ الثياب واللحى
 بالصفرة . روى اسمعيل بن عبدالله بن جعفر عن ابيه قال : رأيت النبي وعليه ثوبان
 مصبوغان بالزعفران رداء وعمامة^(٤) . وعن زيد بن اسلم ابن عمر كان يصبغ
 لحيته بالصفرة حتى تمتلئ ثيابه من الصفرة . فقيل له : لم تصبغ بالصفرة فقال اني
 رأيت رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يصبغ بها . ولم يكن شي . احب اليه منها . وقد كان
 يصبغ بها ثيابه كلها حتى عمامته^(٥) . وفي كتاب نوادر الإشراف في مكارم الاخلاق
 عن ابي عبدالله قال : ما من شيء احسن على الكعبة من الرياط السابري المصبوغ
 بالزعفران .^(٦)

وكان يُعدّ مثل هذا الصبغ من التأنق والطيب ولذلك نهى في الحديث ان
 يتزعفر الرجل . وقال لا تلبسوا شيئاً من الثياب مسّه الزعفران ولا ورس^(٧) . وفي
 روايات الشيعة عن عمران الحلبي عن ابي عبدالله انه سُئل عن المحرم يكون به
 الجرح يتداوى بدواء فيه زعفران فقال : « ان كان الزعفران غالباً على الدواء فلا .
 وان كانت الادوية غالبية عليه فلا بأس » . ورووا عن الصادق ، وهو لقب ابي

(١) التاج ٢: ٢٢٠

(٢) لسان العرب ٦: ٢٠٥

(٣) التاج ٢: ٢٢٠

(٤) العقد الفريد لابن عبد ربه ٣: ٢٨٥

(٥) سنن ابي داود ٢: ١١٤

(٦) من مخطوطات الخزانة المملوكية ، رقم ١٦٩٣ ، ص ١٤٢

(٧) صحيح البخاري ، بولاق ، ٢٦: ٤٥

جعفر محمد بن علي بن الحسين ، انه قال : يُكْرَهُ من الطيب اربعة اشياء
للمحرم : المسك . والعنبر . والزعفران . والورس ^(١) .

وانما رغبوا هذه الرغبة في الزعفران لذكاء رائحته . وحمرة لونه المائلة الى
الصفرة . وكانت الصفرة احب شي . الى رجالهم ونسائهم . ولاعرابي في عجزه :
وما غرّني الا خضاب بكفها وكحل بعينها واثوابها الصفرة (٢)

وقيل ان الخليفة معاوية كان يصفر لحيته كأنها الذهب ^(٣) . وكان الامراء
والولاة والكبراء اذا خلّوا للشرب لبسوا المصبغات الملوّنة ولا سيما الصفرة قال
الشعبي : لما ولي بشر بن مروان الكوفة كنت على مظالمه فأتيته عشية . . . فاذا
بشر بن مروان عليه غلالة رقيقة صفراء وملاّعة تقوم قياماً من شدة الصقال وعلى
رأسه اكليل من ريحان ^(٤) .

ومن الخلفاء الذين غالوا في التهوس باون الصفرة وانفقوا عليه النفقات الطائلة
المتوكل على الله . حدث ابو محمد بن حمدون عن ابيه قال :

« ان المتوكل اشتهى ان يجعل كل ما يقع عليه عينه في يوم من ايام شرابه
اصفر . فنصبت له قبة صندل مذهبة مجلّلة بديباج اصفر . مفروشة بديباج اصفر .
وجعل بين يديه الدستنبو والاترج الاصفر . وشراب اصفر في صواني ذهب . ولم
يحضر من جواريه الا الصفر عليهن ثياب قصب اصفر . وكانت القبة منصوبة
على بركة مرصعة يجري فيها الماء . فامر ان يجعل في مجاري الماء اليها الزعفران
على قدر ليصفر الماء ويجري من البركة . ففعل ذلك وطال شربه فنفد ما كان
عندهم من الزعفران . فاستعملوا العصفرة . ولم يقدروا انه ينفد قبل سكره فيشتروا .
فنفد . فلما لم يبق الا قليل عرفوه وخافوا ان يغضب ان انقطع ولا يمكنهم قصر
الوقت من شراء ذلك من السوق . فلما اخبروه انكر لم لم يشتروا امراً عظيماً

(١) كتاب من لا يحضره الفقيه لابي جعفر محمد بن بابويه القمي ، رقم ١٧٠٣ من
المخزاة المملوئية ، ص ٣٤٢

(٢) العقد الفريد ٢ : ٩٤

(٣) مجلد من تاريخ الاسلام للذهبي . خزائن اكسفورد f^o35^a, Land. or. 286,

(٤) الاغانى ، طبعة الدار ، ٢ : ٢٤٩

وقال: الآن ان انقطع هذا تنغص يومي . فخذوا الثياب المعصفرة بالقصب فانقعوها في مجرى الماء ليصبغ لونه بما فيها من الصبغ . ففعل ذلك . ووافق سكره مع نفاد كل ما في الخزان من هذه الثياب . فحسب ما لزم على ذلك من الزعفران والعصفر ومن الثياب التي هلكت فكان خمسين الف دينار.^(١)

وهذا مثل من امثال شهوات الخلفاء الغريبة واقتراحتهم في التبذير والاسراف وهي التي اتصف بها المتوكل خصوصاً في خلافته . وكان الزعفران ايضاً من اهم مواد الطيب والزينة . تمدح به النساء الحسان . ولذلك قال الشماخ بن ضرار :

بما شَرَقَ من زعفران وعنبر اطارت من الحسن الرداء المجبراً (٢)
وما لبث النساء ان اتخذنه لطلاء وجوههن . وربما سُمِّي هذا الطلاء العمرة . وفي الامثال : من خُدع بالعمرة وقع في العمرة . اي في الشدة والمكروه . حكى ابن عبد تروج امرأة من همدان . فلما دخل بها كرهها ، فقال من ابيات :
واني قد دَلَّيت على عجوز مبرقة مخضبة البنان
تغضن جلدھا ، واخضر ، ألا اذا ما صُرِّجت بالزعفران (٣)
وهذا معنى قولهم : اهلك النساء الاحمران : الذهب والزعفران.^(٤)

وربما سمي الزعفران عطر العذارى . قال العباس بن الحسن ، وزير المكتفي والمقتدر ، وقد التطخت اصبعه الوسطى بالمداد :

انما الزعفران عطر العذارى ومداد الدويّ عطر الرجال (٥)
وانما خُصَّ بهنّ لكثرة استعمالهنّ له . وألاً فانه كان عطر الرجال كما سبق من ذكر تحريره على المحرم . قال المنصور بن عامر :
ألم تَرَني بعثُ المقامة بالسرى ، ولين الحشايا بالخيول الضوامر
وبَدَلْتُ بعد الزعفران وطيبه ، صدا الدرع من مُستحكمات المسامر (٦)

(١) نشوار المحاضرة ١ : ١٤٦-١٤٧

(٢) زهر الآداب للجصري ، جاش العقد الفريد ، ١ : ٢٤٠

(٣) الاغانى ، طبعة الدار ، ٢ : ٤١٩

(٤) كتاب البخلاء للجاحظ . طبعة ليدن ص ١١٧

(٥) الوافي بالوفيات للصفدي ، خزانه بريتش موزيوم Add. 2358 f° 9^b

(٦) القيمة للنعالي ، طبعة مصر ، ٣ : ٥٤

ولذلك كان يُستصحب في الاسفار ويُستصلح للهدايا حتى للاعراب وساكني الحيام. قيل خرج عبد الله بن جعفر يريد الشام فألجأه المطر الى ابيات فقراه رجل فيها ليلتين فاراد مكافأته. فدعا بشوب فجعل فيه زعفراناً وصرّ في طرف منه مئة دينار ثم بعث به الى اهل الرجل . فابوا قبوله.^(١) وكان لكثرة ما تهدي منه الوزراء واصحاب الثراء يُطحن كما يطحن الدقيق. حكى ابو عبد الله احمد ابن الاصمغ قال: «كنت اتصرف مع سليمان بن وهب (الوزير العباسي) لقربة كانت بيننا من جهة النساء. وكانت حالي بصحبته في نهاية السعة حتى انه كان يطحن الزعفران في داري كما يطحن الناس الدقيق لكثرة ما يجيئنا من الجبل ونستعمله ونهديه.»^(٢) ويعني بالجبل هنا كورة اصبهان . واكثر ما كان يُستعمل الزعفران في تركيب الخلوق. وهو نوع من الطيب مائع اعظم اجزائه الزعفران. يقال: خلقه وتخلّق الرجل اذا تطيب بالخلوق. ولابن المعتز في التشبيه

او عروس قد ضُمَّتْ بخلوق ففي صفراء في قبص حُباب (٣)

وربما طيبوا بالخلوق بعض الاحجار تكرّياً. قيل «وفي سنة ٦٦٠ (١٢٦٠م) ظهر في مصر تجاه حوض الجامع الاقمر حجر مكتوب عليه هذا مسجد موسى عليه السلام. فجُتّق بالزعفران وسمي من ذلك اليوم بالركن المخلّق.»^(٤) ومن هذا القبيل تخليق عمود مقياس النيل اذا بلغ الوفاء ست عشرة ذراعاً ويحصل لاهل مصر به فرح عظيم «ويُتخذ ذلك اليوم عيداً يركب فيه السلطان بعساكره وينزل في المراكب لتخليق المقياس. ويجتمع الناس من كل الانحاء للفرجة . ويجري من الطرب والتهتك ما لا مزيد عليه. ولذلك قال شهاب الدين بن العطار مورياً الى الستر الذي كان يُسبَل على شبّاك المقياس للتبشير بوفاء النيل:

تَهْتِكُ الخلق بالتخليق ، قلت لهم : ما احسن الستر ! قالوا : العفو مأمول !

ستر الاله علينا لا يزال فما احلى تَهْتِكُنَا والستر مسبول (٥)

(١) لباب الآداب لأسماء بن منقذ ، مصر ، ص ٨٥-٨٦

(٢) نشوار المحاضرة ٨: ٦٦

(٣) زهر الآداب للحصري ، جاش العقد الفريد ، ١: ٢٠٧

(٤) الخطاط للمقرئزي ، مطبعة النيل ، ٢: ٢٤٨

(٥) الخطاط للمقرئزي ، مطبعة النيل ، ٣: ٩٧ و ٣٠٠

وفي سنة ٨٥٥ وقى النيل ست عشرة ذراعاً فنزل المقام الفخري عثمان ابن السلطان في وجوه الناس وخلق المقياس . وكان هذا اليوم من الايام المشهورة لغاية سرور الناس بوفاء النيل وخلق الناس بعضهم بعضاً بالزعفران^(١) .

ولما عاد الملك الظاهر برقوق الى مصر سنة ٧٩٣ ، في سلطنته الثانية ، طلع الى القلعة ودخل الى الدور السلطانية . قال ابن تغري بردي : فاستقبلته المغاني والتهاني وفرشت الشقق الحرير تحت اقدامه ونثر على رأسه الذهب والفضة . هذا وقد تخلق غالب اهل القلعة بالزعفران^(٢) .

وفي سنة ٨٨٦ عزل السلطان قايتباي كاتب السر ابن مزهر . ثم رضي عليه ، واعاده الى منصبه ، وخلع عليه . « فنزل من القلعة في موكب حافل وتخلق جماعة بالزعفران وزينت له حارته »^(٣) .

وفي سنة ٩٠٢ لما ثبت رشد السلطان الناصر الي السعادات ابن الملك الاشرف قايتباي ضربت البشائر بالقاعة وتخلق جماعة بالزعفران^(٤) .

ومما تقدم يتبين ان العادة كانت لا تزال باقية حتى اوائل القرن العاشر للهجرة ان يتخلق الناس بالزعفران في بعض المواسم والاعياد والافراح .

وكان الطهاة قديماً يكثرئون اتخاذ الزعفران في جملة الالبازير التي تُطَيَّب بها الاغذية والقذور ، وتُصبغ بها الحلوا . لموائد الخلفاء والمتنعمين^(٥) .

وقد مرَّ بنا قبلاً ان الزعفران كان يجيء بكثرة من كورة اصبهان وهو من مفاخرها . قال بعضهم يذكر محاسن اصبهان آسياً على فراقها :

ولها الزعفران ، والعسل الما ذى ، والصفان تحت الجلال

وانذاك قال الحجاج لبعض من ولّاه اصبهان : قد وليتك بلدة حجيرها الكحل وذبابها النحل وحشيشها الزعفران^(٦) . وأشار ابن رسته الى فضل زعفران اصبهان

(١) حوادث الدهور مدى الايام والشهور لابن تغري بردي ، ليدن ، ١ : ١١١

(٢) النجوم الزاهرة ٥ : ٥٤٥

(٣) ابن اياس ٢ : ٢١١

(٤) ابن اياس ٢ : ٢٠٦

(٥) كتاب الطبخ وإصلاح الاغذية المأكولات لابي محمد المظفر بن نصر الوراق .

خزانة اكسفر ١٤-١٣ f^o ١٨٧ Hunt.

(٦) معجم البلدان ١ : ٢٩٤

على سواه فقال: «وبها من الزعفران الذي وان كان في غيرها من البلدان موجوداً فان فضله على كل ما في سائر المواضع ظاهر لانه اذكى رائحة وايين نفعاً واشبع صبغاً في كل ما يستعمل . ولا يبتاع في شيء من المواسم والاسواق التي يُجلب اليها منه شيء ما دام يوجد زعفران اصمهان»^(١)

ومن مدائن الجبل التي اشتهرت بوفرة زعفرانها قم . قال جعفر بن جرار كاتب ابن طولون:

تسحب ذيلين من خلوق قد أفنينا زعفران قُماً
كافاً أخنيا عليها من طيب ما باشرا وشماً
فألقينا زعفران قم فأنغمسا فيه واستحماً^(٢)

ومنها مدينة همذان . قال بلديها محمد بن بشار يفتخره:
بلد نبات الزعفران ترابه وشرابه عسل بماء قنار^(٣)

وروى البشاري المقدسي ان بنهاوند وروزراوند من اقليم الجبال مزارع الزعفران .^(٤) وكان في بلد الروم مدينة صغيرة اسمها كينوك . اجتاز بها ابن بطوطة قال: «وتزلنا بدار عجوز كافرة وذلك ابان الثلج والشتاء . فاحسننا اليها وبتنا عندها تلك الليلة . وهذه البلدة لا شجر بها ولا دوالي العنب . ولا يُزرع بها الا الزعفران . واتتنا هذه العجوز بزعفران كثير . وظننت اننا تجار نشتره منها»^(٥) وكان في كيليكية من بلاد الارمن نوع فاخر من الزعفران يحمل الى المغرب لرغبة المصورين فيه .^(٦) ومن الشرق دخل الزعفران اسبانية ، وكثر فيها وفي ايطالية ، حتى كان يحمل منها الى شتى الاقطار . وازدُرع ايضاً في افريقية ، وعدّ في جملة ما يرتفع منها من التجارات .^(٧)

ومن اجل هذا الرواج الشديد في كل الاسواق على الزعفران وكثرة الحاجة

(١) الاعلاق النفيسة ، ص ١٥٧

(٢) المقد الغريد لابن عبد ربه ١٢٨: ٣ و ٢٩٦

(٣) معجم البلدان ٤: ٩٨٣

(٤) احسن التقاسيم ، ص ٣٩٣

(٥) رحلاته ، طبعة وادي النيل ، بمصر ، ص ١٨٩

(٦) W. Heyd. Histoire du commerce du Levant, II, p. 668

(٧) احسن التقاسيم ، ص ٢٣٩

اليه كان من هم الديارات العناية به في جملة مزروعاتها . كدير الكلب بنواحي الموصل . ودير مرّان بدمشق . ذكر ابو الفرج الاصبهاني الخالدي انه كان على قلعة مشرفة على مزارع الزعفران . وكدير مار ماروثا بظاهر حلب . واشهر الاديار التي كانت متخصصة به دير على رأس جبل مطّل على نصيبين كان فرش ارضه من الزعفران . وسمي لذلك بدير الزعفران . قال الخالدي وشعر زعفرانه فائق . ومنه ومن العسل اكثر يسار رهبانه .^(١)

ويظهر ان زراعة الزعفران قّلت او انقطعت في بعض المدن والديارات على اثر ما حلّ بها من الدمار والحرب . ولذلك كان تجار الزعفران يستجلبونه من جنوة في ايطالية ، ورساونة في اسبانية . وكان الجنوبي يفضل سائر الاجناس ولذلك كان يُقلّد كثيراً ويُغشّ . قال الفقيه ابو عبدالله محمد بن العبدري المشهور بابن الحاج المتوفى بالقاهرة سنة ٧٣٧ (١٣٣٦/٧ م) :

«من المفاسد ما يفعله بعضهم . وهو انهم يأخذون الزعفران الجنوبي والبرشوني والهمداني ويخلطون الجميع ويبيعهونه على انه كله جنوي . وذلك لا يجوز لان الجنوبي يرغب فيه اكثر من غيره .»^(٢)

(١) مسائل الابصار ، ص ٢٥٤-٢٥٥ و ٣٠٥، ٣٢٢، ٣٢٥

(٢) كتاب المدخل ٣ : ١٢٤-١٢٥

دور الضيافة

اشتهرت الاديار في الجاهلية بايواء المجتاز بها . وضيافة اللاجئين اليها والاحسان الى كل طارق محتاج . ولم يكن فيها وقتئذٍ دور خاصة بالضيافة بل كان نزول الاضياف في بعض الحُجَر فيها والقلالي . ثم جاء الاسلام فوجب على النصارى في جملة الرسوم التي اراد بها إذلالتهم « ان لا يمنعوا كنانتهم من المسلمين ان ينزلوها في الليل والنهار . »^(١) وروى القاضي ابو يوسف ، صاحب الامام الي حنيفة ، ان ابا عبيدة بن الجراح لما صالح اهل الشام اشترط عليهم ، في جملة الشروط ، ان يضيفوا من مرَّ بهم من المسلمين ثلاثة ايام . فلم يكن من ثم بدَّ من وجود مواضع في الديارات لمبيت الزوار وعابري السبيل . ثم كثر الاضياف والمتزهون والمتطرحون . في الديرة لمعاقرة الخمر ، والتبسط في القصف والطرب . وتفاقم الداء بصحبة الجواربي والحطايا لفريق من الامراء والمتطرفين واهل البطالة . وتأذى الرهبان بمثل هذا الاختلاط ، فاعوزت الحال الى بناء دور وحجَر لهم خاصة ، الى جانب الاديار ، ينزل فيها كل من يعشاه من الناس والمسافرين . وتُقام لهم فيها الضيافات على اقدار كل منهم . وكانت هذه البيوت تقام احيانا فوق القلالي والكنيسة ، وهو ما يؤخذ من قول الخالدي في كلامه على عمر الزعفران « لهذا الدير بيوت للضيافة في علو الهيكل . »^(٢) ومن الديارات التي نُصَّ على وجود بيوت للضيافة فيها :

- ١ « دير باعربا بين الموصل والحديثة . فيه بيت ضيافة ينزله من يجتاز به »^(٣)
- ٢ « دير باريثا بارض الموصل . قال الخالدي : رأيت في بعض السنين وكان به راهب يقال له كوريال (جبريال ؟) فاضافنا احسن ضيافة . واکرمنا غاية

(١) جزء فيه بيان ما يلزم اهل الذمة فعلة ليقع التمييز بينهم وبين المسلمين في ملابسهم وغير ذلك ، لابي يعلى محمد بن الحسين بن محمد بن الفراء ، من مخطوطات خزانة دار علم سماع بتاريخ ٦٣٧ (١٠٦٥ م)

(٢) كتاب الخراج ، ص ١٦٥

(٣) مسالك الابصار ، ص ٢٠٥

(٤) مسالك الابصار ، ص ٢٠٠

الأكرام بالطعام الكثير والشراب العتيق الواسع وعلف الدواب واكثر . فعظم في عيني وعاتبته على الإسراف في فعله . فقال هذا والله رسمنا مع كل من ينزل بنا .^(١)

٣ دير مر يحنأ الى جانب تكريت . قال الشابشتي : « لا يخلو من المتطربين والمتزهين ولا من مسافر ينزله . ولكل من طرقة من الناس ضيافة قائمة على اقدار المضاف لا يُخلون بها . وعلى باب صومعة عبدون الراهب رجل من الملكية بنى الصومعة وتزلفا فصارت تعرف به . وهو الآن المستولي على الدير والقيم به ومن فيه . وقد بنى الى جانبه بناء ينزله المجتازون فيقيم لهم الضيافة ويحسن لهم القرى .^(٢)

٤ دير الاسكون . وهو « راكب للنجف . وفيه قلالي وهياكل ورهبان يقيمون الضيافة لمن ورد عليهم .^(٣)

٥ دير مران بدمشق . اشتهر بضيافة ابي الفرج البغاء ، شاعر سيف الدولة ، والتجاء احد آل المادرائين فيه حين خشي الافلاس . واختبأ مع غلامه في قلعة منه « فضية الحيطان رخامية الاركان » استزار فيها ابا الفرج . وانقضت لها فيها بين الطرب والهوى ليلة من ليالي الدهر خلد البغاء ذكرها في حكاية له رصعها بنثره الشائق وشعره الفائق . ونقلها الثعالبي في يتيمة وابن ظافر في كتابه بدائع البدائه . ومن مطالعتها يعرف ما كان يجري احيانا وراء حدران القلالي ودور الضيافة في البيع والاديار من المجنون والجنون .

٦ « دير سيمان بظاهر انطاكية وهو مثل نصف دار الخلافة ببغداد يضاف به المجتازون .^(٤)

٧ دير القاروص على جانب اللاذقية من شمالها . اغفل ذكره ياقوت ، ولم يشير اليه غير صاحب مسالك الابصار . قال ابن بطوطة في رحلته : « هو اعظم

(١) مسالك الابصار ، ص ٣١٤

(٢) كتاب الديارات ، ص ٧٣-٧٤

(٣) مسالك الابصار ، ص ٣١١

(٤) معجم البلدان ٢ : ٦٧٢

دير بالشام ومصر يسكنه الرهبان ويقصده النصارى من الآفاق . وكل من نزل به من المسلمين فالنصارى يضيفونه . وطعامهم الخبز والجن والزيتون والخل والكَبَر .^(١)

وكان بعض الاضياف ، ولا سيما من وجوه الدولة والامراء وذوي قرابة الخلفاء ، لا يبطلون بابتذال مثل هذه الابنية الرهبانية وإطلاق العنان فيها لشهواتهم في عشرة القيان والغلان . واشتهر منهم ابو علي بن الرشيد بملازمة دير مريان ببغداد والشرب فيه . « وكان له قيان يحملنَّ اليه ويقم به الايام لا يفتر عزفاً وقصفاً وكان شديد التهمك . وكان من يجاور الموضع يشكون ما يلقونه منه . »^(٢)

ونظير ذلك ما كان يجري في دير الزندورد . « حكى عبد الواحد بن طرخان قال : خرجت الى دير الزندورد في بعض اعياده متطرباً متزهاً ومعنا جحظة في جماعة من اخواني . فازلنا موضعاً حسناً . ورافقنا هناك جماعة من ظراف بغداد . لجميعهم معشوقات حسان الوجوه والغناء . فاقمنا به اياماً في اطيب عيش . وقال جحظة فيه شعراً . ذكر الدير وطيب الوقت ومن كان معنا وغنى فيه لحناً حسناً وهو :

سقياً ورعياً لدير الزندورد ، وما يحوي ويجمع من راح وريحان
دير تدور به الاقداح 'مترعة' من كف ساق مريض الطرف وسان
والعود يتبعه ناي يوافقه ، والشدو يحكمه غصن من البان
والقوم فوضى ، ترى هذا يقبل ذا وذاك انسان سوء « جنب » انسان (٣)

ومن اقبح ما كان يجريه على الاديار والكنائس العهد القاضي بايواء كل مسلم عابر سبيل نزول بعض اللصوص والفُسَّاق ، وارتكابهم فيها المحرمات والكبائر . وإفساد بعض المترهبين والمترهبات ، كأبي الطمحن القيني « قيل له — وكان فاسقاً خارباً — ما ادنى ذنوبك . قال ليلة الدير . قيل له وما ليلة الدير .

(١) مسالك الابصار ، ص ٢٢٦ ؛ ورحلة ابن بطوطة ، مطبعة النيل ، ١ : ٤٧

(٢) البديارات للشابشتي ، ص ١٣

(٣) مسالك الابصار ، ص ٢٧٤ .

قال نزلت بديرازية فأكلت عندها طفشيلاً^(١) بلحم خنزير . وشربت من خمرها وزنيت بها وسرقت كساءها . ثم انصرفت عنها .^(٢)

وقريب منه ما فعل عبادة المخنث « كان لما نفاه المتوكل الى الموصل يمضي الى دير الشياطين (غري دجلة من اعمال بلد) فيشرب فيه ولم يكن يفارقه . فهو غلاماً من الرهبان بالدير . وكان من احسن الناس وجهاً وقداً . فهم به وجنّ ولزم الدير من اجله . ولم يزل يخدمه ويلطفه ويعطيه الى ان سلخ الراهب عن الدير وخرج معه . وفطن رهبان الدير بعبادة وما فعل من إفساده الغلام فارادوا قتله بان يرموه من اعلى الدير الى الوادي . ففطن بهم وهرب ولم يعد الى الموضع . »^(٣)

ولاحد بن ابي طاهر يذكر ليلة قضاها في دير السوسي :
سقى سرّاً من راء ، وسكاتها ، وديرّاً لسوسيتها الراهب
فقد بت في ديره ليلة وبدر على غصن صاحبي
غزال سقاني حتى الصبا ح صفراء كالذهب الذائب
سقاني المدامة مستيقظاً وغت ونام الى جانبي
فكانت غنات لي الويل من جناها الذي خطه كاتي^(٤)

ولعل هذه الجنات من التخيلات التي يهيم بها الشعراء في اودية الشعر او من قول ما لا يفعلون . ولا ريب ان كثيرين من اضياف الديارات كانوا لا يرون اقل حرج على من شاء منهم الاستسلام للشهوات واتيان انواع المنكرات :
« متى » يمل على دير ابن كافرة . من النصارى يبيع الخمر مشهور^(٥)

(١) الطفشيل نوع من المرق وضبطه في تاج العروس بتقديم الباء على الشين كسميدع والصواب ما حكيناه . قال ابو نواس يهجو رجلاً :

لو كنت لوقاً كنت طفشيلةً او طائراً أصبحت مكرّاً .

(ديوانه . باريس ١٨٣٩ ، ص ٢٩٠)

وقال ابو شراعة ، احد شعراء الدولة العباسية :

عيني جودي لبرمة الطفشيل ، واستهلي فالصبر غير جميل (الاغاني ٢٠: ٢٩)

(٢) الاغاني ١١: ١٢٢

(٣) الديارات للشابشي ، ص ٧٩

(٤) مسالك الابصار ، ص ٢٦٣

(٥) مسالك الابصار ، ص ٢١٢

حانات الديارات

كان إلحاق الحانات بالديارات لا شك بعد الاسلام . أنشئت فيها على اثر اعتياد المسلمين ابتياع الخمر من الرهبان ، وطروقتهم القلالي حتى في ظلمات الليل ، واختلاطهم بهم في اوقات العبادات والصلوات . فلم يروا بدءاً من التحوّل والتصوّن . وهزل مستودعات الشراب بمنأى عن الهياكل والمعابد . وجعلها في حيز المعاصر . وقد اخطأنا التوفيق في البحث عن وصف لمشمولات الحانات في نثر او شعر . او ايما ، الى كيفية بنائها ووجه استغلالها . ويستدل من بعض الروايات ان طائفة من الاديار والقلالي بقيت مع ذلك تحفظ الخمر في مخادع ضمن اسوارها وتبيعها رأساً لزوارها ، وهو ما يستفاد من قول القائد ابي عبدالله محمد بن خليفة السنبسي ، احد شعراء سيف الدولة صدقة بن دُبَيْس :

• ولربّ دير قد قصدنا نخوه في فنية ، ناء عن الاسواق
فطرقنا باجم . فقال كبيرهم : اهلاً بزاثرنا ، وبالطُرّاق
ومضى بعموله وغاب هنيئة في مخدع ناء ورا اغلاق
وأتى بها بكرّاً نخال حباها فوق الدنان نواظر الاحداق (١)

ومن الديارات التي اشتهرت بكثرة حاناتها :

- ١ « دير ساُبر في الجانب الغربي من دجلة في بقعة كثيرة البساتين والكروم والثمار والحانات والخمارين . » (٢)
- ٢ « دير جرجس بالمرزفة على شاطئ دجلة والبساتين محدقة به . والحانات مجاورة له . » (٣)
- ٣ « دير سرجيس بطيرناباذ بين الكوفة والقادسية » كانت ارضه محفوفة بالتخل والكروم والشجر والحانات والمعاصر . » (٤)

(١) خريدة القصر للعماد الكاتب . باريس ٣٣٢٦ ، ص ١١٧
(٢) الديارات للشابثي ص ٢١ ، ومسالك الابصار ، ص ٢٧٩
(٣) الديارات للشابثي ص ٢٧ ، ومسالك الابصار ، ص ٢٨١
(٤) الديارات للشابثي ص ١٠٢ ، ومسالك الابصار ، ص ٢٨٤

٤ دير زرارة بين الكوفة وحمام عين وهو « كثير الحانات والشراب »^(١)
 ٥ دير اشموني بقطر بلّ. وعيده اليوم الثالث من تشرين الاول . . . لا يبقى
 احد من اهل التطرب واللعب الا خرج اليه . . . ويعمرون شطه واكنافه . وديره
 وحاناته .^(٢)

٦ « دير قوطا بالبردان على شاطئ دجلة . وهو يجمع احوالاً كثيرة منها .
 ان الشراب هناك مبدول والحانات كثيرة »^(٣)

ومن الغريب ان اديار النساء الرواهب كانت نفسها محفوفة بمثل هذه
 الحوانيت والخمارات باخطارها واضرارها . كدير العذارى بجانب العلق بين
 سامراً وبغداد « كانت حوله حانات للخمارين وبساتين ومتنزهات . لا يعدم من
 دخله ان يرى من رواهيه جوارى حسان الوجوه والقود والالفاظ .
 قال الخالدي : ولقد اجتزت به فرأيت حسناً . ورأيت في الحانات التي حوله خلقاً
 يشربون على الملاهي . . . وانشد جعظلة لنفسه :

قالوا : فيصك مغسور بآثار من المدامة ، والريحان ، والقار
 فقلت من كان مأواه ومسكنه دير العذارى ، لدى حانات خمار
 لم ينكر الناس منه ان حلت خضراء كالروض او حمراء كالنار^(٤)

ولسنا نعلم هل كانت ادارة هذه الحانات تعقد احياناً لاحد رهبان الدير
 ام تُضَمَّن في الاعمّ الاغلب لبعض الخمارين . ولدينا نصوص لا تحتمل التأويل
 شاهدة بان من الحانات ما كان في ايدي القسوس والرهبان كالتي في دير مارت
 مريم بالحيرة . ذكر ابو الفرج الاصبهاني انه كان فيه قس يقال له يحيى خماراً وابن
 يقال له يوشع تألفه الفتيان الظرفاء .^(٥) ومثله عُمر نصر بسامراً وهو من متنزهات
 آل منذر بالحيرة . وكان الحسين بن الضحاك احد خلعا الشعراء يألفه . « وكان

(١) الديارات للشابشي ص ١٠٧ ، ومسالك الابصار ، ص ٢٨٦

(٢) الديارات للشابشي ص ١٨-١٩

(٣) الديارات للشابشي ص ٢٥

(٤) مسالك الابصار ، ص ٢٥٨-٢٥٩

(٥) مسالك الابصار ، ص ٢١٨ وفي المتن المطبوع : « كان قس يقال له يحيى بن حمار ويقال

له يوشع » وفيه تشويش وتعريف ظاهر . والصواب ما صححناه .

الى جانبه خمار يقال له يوشع . وله ابن امرد حسن الوجه شماس . فكان الحسين يتألف الخمار من اجل ابنه حباً له .^(١) وله في هذا العمر ابيات منها :
 خمار حانتها ، ان زرت حانتها ، اذكى مجامرها بالعود والغار
 جتر كالفصن في سلب مسودة كأن دارسها جسم من القار^(٢)
 اي في ثياب سوداء كالقار . وهو ما يدل على ان الشماس كان يتولى الحانة ايضاً . ولعله كان خازنها اي ، كما يقال اليوم ، امين صندوقها ، مثلما كانت الحال في دير مرّان بدمشق حيث كان القس خماراً وابنه الشماس وزاناً صيرفيّاً ، على ما ذكره ابن ابي جبلة الدمشقي في قصيدة قال فيها :
 شماسه هو وزان ومنتقد ، وقسه هو خمار وكرّام^(٣)
 وقد صرح ابو عبد الرحمن الهاشمي السلمي بان ساقيه كان ابن القسيس حيث قال :

سقاني ابن قسيها كأسها على زورة من حبيب ألم^(٤)

ومعلوم ان القسوس في الشرق كانوا يتزوجون دفعة واحدة في العمر .
 تزال هذه العادة متبعة في بعض القرى والمدن . وكان احدهم لا يؤهل للاستمرار او البطيركية الا بعد وفاة امرأته . ومن اشهر من عرف منهم البطيريك مكارير الزعيم الحلبي ، وكان في صحبته دائماً ابنه الشماس بولس . ولما كان لا بد لهم من القيام بأود اولادهم كانوا يضطرون ، اذا قعدت بهم الحال احياناً ، الى اتخاذ بعض الحرف . ولذلك قام منهم عدة خمارين لبيع خمر البيع والديارات . وربما تولى احد رهبان الدير ادارة حانتهم . وللحسن بن هاني يذكر دير الأكيراح وان ساقى الراح في حانتهم كان راهباً يلبس مدرعة صوف فوق مسح الرهبانية :

يا طيبه ، وعتيق الراح تحفتهم ، بكل نوع من الطاسات رحراح
 بسفيكها مدحج الخصرين ذو كيبف اخو مدارع صوف فوق امساح

(١) معجم البلدان ٣ : ٧٢٥

(٢) برق الشام . خزائن ليدن ٦٤ ، ١٤٦٦ Arabe

(٣) مسالك الابصار ص ٢٢٩

(٤) ديوان ابي نواس . خزائن الفاتيكان ، رقم ٥٥٦ ، ص ١٠٠

وَيُنْشَد لآبِي الْعَيْنَاءِ فِي دَيْرِ بَاشَهْرَا عَلَى شَاطِئِ دَجَلَةِ ٠ وَفِيهِ تَصْرِيحُ بَانَ
السَّاقِي كَانَ الرَّبَّانَ قَسِيْسَ الدَّيْرِ:

نَزَلْنَا دَيْرَ بَاشَهْرَا عَلَى قَسِيْسِهِ ، طُهِرَا
عَلَى دَيْنِ اَيِسُوعَ ، فَا أَفْنَى ، وَمَا أُسْرَى
فَاوَلَى مِنْ جَهْلِ الْفَعْلِ مَا يَسْتَعْبِدُ الْخُرَّاءَ
وَسَقَانَا وَرَوَّانَا مِنْ الصَّافِيَةِ الْمَذْرَا
فَمَلَابَ الرِّقَّتِ فِي الدَّيْسِ ، وَرَابَطْنَا بِهِ عَشْرَا
وَسُقَيْنَا بِهِ الشَّمْسَ ، وَأُخْدِمْنَا بِهِ الْبِدْرَا
وَأَحْيَيْتَ لَذَّةَ الْكَأْسِ وَلَكِنْ قَتَلْتَ سَكْرَا
وَنَلْنَا كُلَّ مَا نَحْوَا هُ مِنْ لَذَاتِنَا ، جَهْرَا
تَصَابِينَا ، وَغَنَمِينَا ، وَأَرْغَمْنَا بِهِ الدَّهْرَا
فَتَكُنَّا ، وَتَحْتَكُنَّا ، وَمِثْلِي هَتَكَ السِّتْرَا
وَقَدْ سَاعَدْنَا رَبًّا نْ طَوْعًا مِنْهُ ، لَا جَهْرَا
جَزَاهُ اللَّهُ عَنْ خَيْرٍ بِهِ قَابَلْنَا خَيْرَا
فَقَدْ أَوْسَعَتْهُ شُكْرَا كَمَا أَوْسَعْنَا بَرًّا (١)

وَفِي قَوْلِهِ أَنَّ الرَّبَّانَ سَاعَدَهُ عَلَى لَذَاتِهِ طَوْعًا شَاهِدَ عَلَى مَا كَانَ يَقُومُ بِهِ
أَنَا بَعْضَ الْقَسُوسِ فِي خِدْمَةِ النَّدَامَى مِنَ الْمَجَامِلَاتِ الْمُنْكَرَةِ ٠
وَلِلشُّعْرَاءِ عِدَّةُ آيَاتٍ تَقْدُمُ بَعْضُهَا ذَكَرُوا فِيهَا اسْتِبَاءَهُمُ الْخَمْرَ مِنْ أَيْدِي
الرَّهْبَانِ وَالرَّاهِبَاتِ ، فَضَّلَا عَنْ مَنَادِمَتِهِمْ عَلَيْهَا بَعْضُ فَتَيَانَ الدَّيْرِ وَفَتَيَاتِهِ بِالْثِيَابِ
السُّودِ وَالْأَمْسَاحِ ٠ وَمِنْهَا لَتَاخُ الدِّينِ مُحَمَّدُ بْنُ حَوَارِي:

وَرَبَّ دَيْرٍ طَرَقْنَا بَابَهُ سَجْرًا ، وَلِلنَّوَاقِيْسِ فِي أَعْلَاهُ أَصْوَاتُ
فِي فَتْيَةٍ كَالنَّجُومِ الزَّهْرِ ، أَوْجَهُمْ مَنِيرَةٌ اشْرَفَتْ مِنْهَا الدُّجُنَّاتُ
فَقَالَ رَاهِبُهُ : مَنْ ذَا ؟ فَقُلْتُ لَهُ : قَوْمُ الْيَكِّ لَجَمٍ فِي الدَّيْرِ حَاجَاتُ
فَقَامَ يَسْعَى إِلَى إِكْرَامِنَا عَجَلًا وَقَالَ : بَشْرَى لَكُمْ عِنْدِي الْمَسْرَاتُ
هُبُّوْا فَا الْعَيْشَ إِلَّا أَنْ يَطُوفَ عَلَى السُّنْدَامَى ، فِي الدَّيْرِ ، طَاسَاتُ وَكَاسَاتُ (٢)

وَلَا حَاجَةَ إِلَى التَّنْبِيهِ عَلَى أَنَّ مِثْلَ هَذِهِ الْأَقْوَالِ الْمُنْسُوبَةِ إِلَى الرَّهْبَانِ وَالْقَسُوسِ
فِي الْأَدْيَارِ لَيْسَتْ إِلَّا مِنْ أَفَانِينَ الشُّعْرِ الَّتِي يُرَادُ بِهَا التَّحْسِينُ وَالْإِغْرَابُ فَلَا يَجِبُ
أَنْ تَتَّخَذَ عَلَى ظَاهِرِهَا .

(١) الدِّيَارَاتُ لِلشَّابِثِيِّ ، ص ٢٢-٢٣

(٢) الْجُزءُ الْعَشْرُونَ مِنْ عَيُونِ التَّوَارِيخِ لِلْكُتَيْبِيِّ ٠ الْخَزَائِنُ التَّيْمُورِيَّةُ ، ص ٢٢٧-٢٢٨

ولا بن الحكاك ابي الحسن بن محمود الحنجندي الموصل في دير سعيد :
 رهبان دير سعيد بثّ عندهم في ليلة نجمها حيران مرتبك
 فجاء راهبهم يسعى ، وفي يده مدامة ما على شراها درك
 كالشمس مشرقها كأس ، ومفرجها فم النديم ، وكفّ الساقى الفلك
 ما زلت اشربها حتى زوّت نشي عني ، كما زوّيت عن فاطم قدك
 من كف اغيد تحكي الشمس طلعت ، في خده الورد والنسرين مندك (١)
 ونظيره قول ابي الحسين محمد بن ميمون الكاتب في دير باقوقا . ذكره ابن
 المستوفي في تاريخ اربل :

نزلت بدير باقوقا ، وفيه من الرهبان لي خدن مقيم
 فالحقني بصهباء شمول يفوح بعنبر منها النسيم
 ونادمني برهبان ملاح وفيهم شادن حسن رخيم (٢)

وفي منادمة الرهبان الملاح للشاربين المسلمين موضع نظر . ومثل هذه الدعوى
 لا شك من تخیلات الشعراء ومبالغاتهم المعتادة .

ومن اقبح ما هنالك ان الساقى كان يكون حيناً ابنة قس الدير ، صاحب
 الخانة . روى العمري ان الفضل بن اسمعيل بن صالح بن عبدالله بن العباس نزل
 يوماً دير يونس مقابل الموصل « فرأى فيه حسناء ابنة لقس كان فيه فخدمته
 مدة مقامه ثلاثة ايام . وجاءته بشراب صاف عتيق . فلما اراد الانصراف اعطاها
 عشرة دنانير ورحل . وقال في طريقه ابياتاً اولها :

عليك سلام الله ، يا دير ، من فتي بهجت شوق اليك طويل

وآخرها :

ايا ابنة قس الدير قلبي مدله عليك ، وجسمي منذ بدت عليل (٣)

وللشهاب العمري حين زار الدير الابيض من السديارات السبعة في مصر
 ابيات نظمها فيه ، وذكر ان ساقيته كانت من بنات القسوس فقال :
 وكأس المدام علينا تطوف بحمراء صافية كالذهب
 يطوف بها من بنات القسوس بانخله الكف ليست تحب

(١) التاسع من الجامع المختصر لابن الساعي . الخزانة التيمورية ، ص ٢٠١

(٢) مسالك الابصار ، ص ٢٨٩

(٣) مسالك الابصار ، ص ٢٤٦-٢٤٧

مبتلة ، بين رهبانها ، لاحظها في حشانا رهب
مسيحية طلعت في المسوح كصبيح اطلّ وليل ذهب (١)
ولا يخفى ما في تعرض بنات القسوس لمعاظاة الكوثوس من التبذل
والاستهداف لاختطار عريضة السكارى . وربما انتهت بهن هذه المنادمة الى الخروج
من عصمة الدين ، والدخول في ربة الاسلام . ومن اشهر من أدّت بهن مثل
هذه الحال الى سوء المآل شعانين ابنة قسّ دير صليبا بدمشق حين طاوعت
الخليفة العباسي المتوكل على الله على الاسلام ، والتزوج به ، كما نقلناه في
كلامنا على دير باب الفراديس (٢) .

وقريب من هذه الاخطار بيع الرواهب للخمر احياناً حتى في ظلمات الليل .
وهو اشدّ قبحاً من بيع بنات القسوس . ومن الابيات التي وردت شاهدة بمثل
هذا التجوّز والتسامح قول ابن نباتة المصري :

وراهبة طرقتنا بليل ، ودون مزارها ارج يفوح
فهبت في الظلام الى مدام كأن شعاعها قبس يلوح
وحيتنا بصافية مشمول ، كما يترقرق الدمع السفوح
كأننا قد سابنا الديك عيناً ، فقام من الكرى فزعاً يصيح (٣)

على ان اكثر حانات الديارات كانت ، دون ريب ، تُضمّن لبعض الخمارين
من عوامّ النصارى ، وهم اسلس مقاداً واقلّ عناداً في الدفاع عن حوزة الادب
والعفة . فكانوا لا يرون بأساً في التوسّل بكل وسيلة لاجتذاب الشبان والمجان
وعشّاق بنت الحان . وفي طبيعة هذه الوسائل اختيار السقاة عندهم والمغنين من
احسن الناس وجهاً وقداً من العلمان والجواري . وعقد ادارة الحانة الى اجمل
الفتيان واحذقهم في الشراب ، وابرعهم في الحث على التلذذ والطرب . كحانة
دير اللج في الحيرة مثلاً ، وهي التي قيل فيها :

بتنا بدير اللج في حانة شراجا في الكأس مكبوب
يدبرها ظبي هضم الحشا يحبه الشبان والشيب
حتى اذا ما الخمر مالت بنا جرت امور واعاجيب

(١) مسالك الابصار ، ص ٢٨٢

(٢) الخزانة الشرقية ٢ : ١٢-١٦

(٣) ديوانه ، طبعة مصر ، سنة ١٩٠٥ ، ص ١١٧

فا ترى ظنك في شادن بات الى جانبه ذيب (١)
ونظيرها دير حنة . وكان بالكوفة رجل اديب ضعيف الحال ، مهمل وقع
في يده شيء ، اتى به دير حنة فيشرب حتى يسكر . ثم ينصرف الى اهله ، وهو
القائل :

ما لذة العيش عندي غير واحدة : هي البكور الى بعض المواخير
لخامل الذكر ، مأمون بوائقه ، سهل القياد من الفُرُج المداير
حتى يحلّ على دير ابن كافرة من النصارى ببيع الخمر مشهور
كأنما عقد الزنار فوق نقاً ، واعتم فوق دجى الظلماء بالنور (٢)

لا جرم ان الاقبال على مثل هذه الحانات التي اجتمعت فيها لذة البصر والسمع
والشم والذوق كان عظيماً عميقاً . ولذلك كثّر السكر فيها ، وغاب المتطرحون
في افئنتها من الخلعة ، ومجان الشعراء من رجالات الادب واشراف العرب ،
نظير ابي الشبل البرجمي ، وعبدالله بن العباس بن الفضل بن الربيع ، وابي جفنة
القرشي ، وابي الطيب محمد بن القاسم النميري ، وعمرو بن عبد الملك الوراق ،
وابي شاس منير ، ومصعب الكاتب ، ومهلل بن يموت بن المززع العبدى ،
وبكر بن خارجة ، ومطيع بن اياس ، ويحيى بن زياد ، والحسين بن الضحاك ،
وجحظة البرمكي ، ومحمد بن عبد الرحمن الثوري ، وكان آخر امره ان أصيب
في حانة بين زقي خمر ، وهو ميت .^(٣) وكثيرين غيرهم . ولاحدهم ، مهمل بن
يموت ، يصف غرامه بالشرب في دير الطور :

يا غلام ، اسقني فقد ضحك السـوقت وقد تم طيب هذا الزمان
أذن مني الدنان ، صبّ الابا ريق ، استحث الكؤوس ، صفّ ألقاني (٤)

ومنه اخذ الصنوبري قوله في دير زكي من ابيات :
يا خليلي ، هاأنا علاني عايطاني الصهباء ، لا تذراني !
أبعدا الماء ، أبعدا الماء ، قوما ، أدنيا أدنيا بنات الدنان (٥)

(١) مسالك الابصار ، ص ٢٢٦

(٢) مسالك الابصار ، ص ٣١٢

(٣) الديارات للشابثي ، ص ٢٠، ٢٥، ٢٧، ٢٨، ٢٤، ٨٣، ٩٠، ١٠١، ١٠٦، ١٠٩

(٤) مسالك الابصار ، ص ٢٢٨

(٥) الديارات للشابثي ، ص ٩٨

ولاسماعيل بن عمار الاسدي يصف سكرة له بدير اللج ، وهو احسن ديارات الحيرة وانزهها . ولم نقف على ابيات اظرف والطف منها واصدق في تشبيه السكارى وقيامهم يتعمّون الى الصلاة بعد فواتها :

ما انس سعدة والزرقاء (١) يومها	باللج ، شرقية فوق الدكاكين
تغشيانا كنفث السجر تودعه	منا قلوباً غدت طوع ابن رامين
يسقي شراباً كلون النار عتقه	يمشي الاصحاء منه كالمجانين
اذا ذكرنا صلاة بعد ما فرطت	قنا اليها ، بلا عقل ولا دين
غشي اليها بطاء ، لا حراك بنا ،	كأن ارجلنا يُقلعن من طين
غشي ، وارجلنا عوجٌ مواقعها ،	مشي الاوز التي تأتي من الصين
او مشي عميان دبر ، لا دليل لهم	سوى العصي الى عيد السعانيين
اهوى ربيعة إن الله فضلها	بحسبها وغناء ذي افانين
فن يقول لما غني ويسعدني	قتلتني يوم دبر اللج فاحييني (٢)

ولما كانت الحانات منسوبة دائماً الى اديارها استجاز الشعراء — وهم يقولون ما لا يفعلون — ان يفتخروا بالسكر في القلاي والكنائس . ولذلك قال ابو نصر المازني :

هذا وك لي بالكنيسة سكرة انا من بقايا شربا مخسور (٣)

على ان بعض الزوار من وجوه الدولة واعيانها كانوا يتغلبون بسطوتهم وجاههم على كل قانون للكنائس والاديار ، ويعاقرون الخمر ضمن اسوارها ، دون اكثارات بالرهبان . وقد سبق ان امير مصر ابا الجيش خمارويه بن طولون كان يسكر في دير القصير بمصر ، وهو ينظر الى صورة للعذراء كان شديد الإعجاب بها . وقد مرّ بنا عدة ابيات للشعراء صرحوا فيها بما كان يجري في الاديار من التبذل والقصص والاسترسال في الشهوات ، وهو ما لا بد من التوسع في شرحه فيما يأتي وايواد الشواهد عليه دفعاً لكل شك وارتياب .

(١) سعدة ، والزرقاء (سأمة) ، وربيعة ، المذكورة فيما بعد ، هن جوار مغنيات كن لابن رامين ، وهو مولى عبد الملك بن بشر بن مروان .

(٢) معجم ما استعجم للبكري ، ص ٢٦٧

(٣) معجم البلدان ٦ : ٦٤٩

تغزل الشعراء بغزلان الديارات

واحتيال الزوار لمنادمتهم والشرب على وجوههم

للشعراء والمغنين وعشاق الخمور النصرانية مقطعات وقصائد تغزلوا فيها بالشماسة والرهبان والراهبات وذكروا اختيارهم كل صبيح الوجه بينهم للمنادمة والشرب والمجالسة والمداعبة . واطلقوا العنان لقرايحهم في التصور والتمني والابتداع والتوهم . حتى اصبح غزل خريأتهم اشبه بغزل قصائد المدح في كونه وليد الفكر ونتاج التخيل والحلم ، واساوباً من اساليب التفنن في النظم . وفيما زعموه وحكوه من وقائعهم واحاديثهم ما يفوت حد الإمكان ، ولا يجوز مثله في تقدير ولا حساب . واذا صدق ما حكاه بعضهم كان حسب الزائر وقتئذ ان يلج باب الدير ويستدعي شرابه ليكون له الحق في اختيار اول مليح او مليحة فيه ليشرب ويغني ويطرب بالنظر الى محاسنها والتلذذ بخطابها . ثم يخرج من الدير وبه «سكران سكر هوى وسكر مدامة» . وهو ما حكاه اسحق الموصلي المغني المشهور حين خرج مع الرشيد الى الرقة ، ومرّ بدير القائم وطاف فيه . قال : « فرأيت ديرانية حين نهد ثديها وعليها المسوح . ما رأيت احسن من وجهها . وكان تلك المسوح عليها حلي . فدعوت ببنيد وشربت على وجهها اقداحاً . ثم دعوت بالعود فغنيت في الدير صوتاً مليحاً ظريفاً وما زلت اكرره واشرب وانظر اليها وهي تضحك من فعلي حتى سكرت » .^(١) وهذه الحكاية اشبه بما يجري في المواخير ودور القيادة منها بما يليق ان يكون في بيوت الزهد والعبادة .

ومن وقف على معظم ما حفظته الرواة من الاخبار والاشعار المقولة في هذا المعنى وتدبر ما ورد فيها من المزاعم والاشارات الى منادمة المسلمين احداث الاديار وتحيلهم بكل حيلة من لبس المسوح والصلبان . وتناول القربان . والتمسح بالايقونات . وحضور الصلوات . حباً بالتقرب منهم وايناسهم . والتلذذ بمجالستهم

والنظر اليهم . يبدر الى وهمه ان اعراض سكان الديارات كانت وقتئذٍ لحماً على وضم يتناوله من شاء . وان بيوت الصلاة كانت اولى ان تسمى بيوت الريبة . ولكن اذا تذكر ان الشعر اعذب به اكذبه تحقق ان كل ما هنالك من دعوى الاستمتاع وقصص المنادمات والمداعبات لم يكن في الحقيقة الا ضرباً من ضروب الوشي والتطريز في النظم يُراد به مجرد الإغراب والإطراب . وقد اخترنا من هذه المنظومات الديرية كل ما رأيناه جديراً بالتأمل والاعتبار او وجدنا في ايراده فائدة ونكته . واول ما نبدأ منها بابيات مشهورة لابن المعتز في راهب من دير عبدون تخيل انه جاءه « في ظلام الليل » . وفي احدى الروايات « في قيص اللاذ مستترا » فقال :

سقى المطيرة ذات الظلّ والشجر	ودير عبدون هطّال من المطر
يا طالما نبهتني للصبح به	في ظامّة الليل والمصفور لم يطير
اصوات رهبان دير في صلاحهم	سود المدارع نغارين في السحر
كم فيهم من مابح الوجه مكتمل	بالسحر يطبق جفنيه على حور
لاحظته بالهوى حتى استفاد له	طوعاً واسلفني الميعاد بالنظر
وجاءني في ظلام الليل مستترا	يستعجل الخطو من خوف ومن حذر
فقت افرش خدي في التراب له	ذلاً واسحب اذيالي على الاثر
فكان ما كان مما لست اذكره	فظنّ خيراً ولا تسأل عن الخبر (١)

وعلى شاكلتها قول عمر بن عبد الملك الوراق في دير مار 'يحنّا الى جانب تكريت . وان كان دونها في الجودة والاحسان :

ارى قلبي قد حنّاً الى دير مريخنا
الى غيطانه الفسحى الى برصته النعنا
الى ظبي من الانس يصيد الانس والجنا
الى غصن من الآس به قلبي قد حنّاً
الى احسن خلق الله ان قدس او غني
فلما انباج الصبح بزلنا بيننا دنأ
ولما دارت الكأس ادرنا بيننا لحنا
ولما هجع الناس غنا وتماقنا (٢)

(١) معجم البلدان ٢: ٦٧٨

(٢) معجم البلدان ٢: ٧٠١

واجتاز الشاعر الكندي المنبجي يوماً بدير مار ماعوث على شاطئ الفرات
فاستحسنه . قال : ورأيت في رهبانه غلاماً كما عذّر قد ترهب . فخطبته فاذا به
احلى الناس الفاخاً على لثغة فيه تجعل السين ثاء . فشديت سماريتي^(١) الى جانب
الدير واشتريت شراباً من الرهبان . وبث هناك منادماً لذلك الغلام . فلما اردت
الرحيل انشدته :

يا طبيب ليلة دير مر ماعوث فسقاه رب الناس صوب غيوث
وسقى حمامات هناك صوادحاً ابداً على سدر هناك وقوث
ومورّد الوجنات من رهبانه هو بينهم كالظبي بين ليوث
ذي لثغة فتانة فيسمي الطاء ووس حين يقول بالطاووث
حاولت منه قبله فاجابني لا والمثيح وحرمة الناقوث
انترك ما تخشى عقوبة خالق تعشيه بين ثمامث وقوث
حتى اذا ما الراح سهل حثها منه العثير برطاله المحثوث
نلت الرغى وبلغت قاصية المنى منه برغم رقيبته السديوث (٢)

وقريب من هذه الابيات قول مصعب الكاتب في دير الزعفران :

عمرت بقاع عمر الزعفران بفتيان غطارقة هجان
ظلمنا نعل الكاسات فيه على روض كنفش الخسرواني
وغزلان مراتهما فوادي شجاني منهم ما قد شجاني
رضيت جم من الدنيا نصيباً غنيت جم عن البيض الفواني
اقبل ذا والتم خدّ هذا وهذا مسعد سلس العنان (٣)

وللسري الرفاء في غزلان الدير يذكر ليلة سكر فيها بقطر بلّ وقال من

جملة ابيات :

ودبر شغفت بغزلانه فكدت اقبل صاباخا (٤)

وايسر خطباً مما تقدم قول الفضل بن العباس بن المأمون في دير مار ماري في

سرّ من رأى :

أنضيت في سرّ من را خيل لذاتي وثلث منها بُني نفسي وشهواني
عمرت فيها بقاع اللامع منغمساً في القصف ما بين اخار وجنات

(١) السماريّة والافصح السُمَيْرِيّة ضرب من السفن .

(٢) مسالك الابصار ص ٢٦٢ ، ومعجم البلدان ٢ : ٧٠١

(٣) معجم البلدان ٢ : ٦٦٢-٦٦٤

(٤) بتيمة الدهر ، طبعة دمشق ، ١ : ٤٦٨

بدير مر مارٍ اذ تُنحي الصبوح به وتُعمل الكأس فيه بالعشيات
 بين النواقيس والتقدّيس آونة وتارة بين عيدان ونايات (١)
 ومثلها قول موفق الدين بن ابي الحديد المدايني وهو بدير ميخائيل بالموصل
 يشبّه باحد رهبانه من « المرتلين » :
 يا ساكني دير ميخائيل لي قُر لكنه بشر في شكل قثال
 قريب دار بعيد في مطالبه غريب حسن والحن واقوال
 سكّرت من صوته لما اشار به ما لست اسكر من صهباء جريال
 ما رمت امساك نفسي عند رؤيته ألا تغبرت من حال الى حال
 يا ليلتي بفناء الدير لست كمن يقول يا ليلتي بالشبح والضال
 قد صرتُ انشد بيتاً صار لي مثلاً لولا وصالك لم يخطر على بالي
 لو اشتريت بعمرى ساعة سلفت من عيشتي معكم ما كان بالغالي (٢)
 وللبيغاء في دير الزعفران ، وقد صحب فيه راهباً ماجناً زعم انه « تجاوز
 له عن صومه وصلاته » :

صفحتُ لهذا الدير عن سيئاته وعددت يوم الدير من حسناته
 وصبتحت دير الزعفران بصحبة اعادت سرور القلب بعد وفاته
 عمّرت محلّ اللاهو بعد دثوره وألّفت شمل الانس بعد شتاته
 وعاشرت من رهبانه كل ماجن تجاوز لي عن صومه وصلاته
 واهيف فاخرت الرياض بحسنه فأذعن صغراً وصفها لصفاته
 جلا الاقحوان الغض نوار ثمره ومال بنصن البان عن حرركاته
 واسكرني بالهذب من قم ريقه وامتعني بالورد من وجناته
 ولما دجا الليل استعاد سنا الضحى براح نأت بالليل عن ظلماته
 نصيبية ديرية كاد كرمها بجوهرها ينهل قبل نباته
 قاهدى اليها الورد من صيغ خده وايدھا بالفتك من لحظاته
 الى ان تخادى بين غوري ونحوه صليب يفوح المسك من نفحاته
 ونمّ الينا دُحّا بضيائها فواهاً لقلب ضاق عن خطراته
 وما زال يسقيني ويشرب والمنى تبشرني عنه بصدق عِداته
 وخوفني منه فخلت صليبه لشدة ما يخشاه بعض وشائ (٣)
 ودخل يوماً سبط ابن التعاويذي الشاعر المشهور دير الثعالب في ضواحي

(١) معجم البلدان ٢ : ٧٠٠

(٢) الجزء العشرون من عيون التواريخ للكتبي ، الخزائن التيمورية ص ١٢٩

(٣) الجزء الثاني عشر من عيون التواريخ للكتبي ، الخزائن التيمورية ص ٢٠٢

بغداد يوم عيد للنصارى فرأى شماساً فيه وسيماً فقال فيه ارتجالاً :

وغزال علقته يوم دير الثعالب
من ظباء الصريم يخطر في زي راهب
كالفضيب الرطب يو هيه حمل الذوائب
شد زناره فحل عقود المذاهب
ما رمى طرفه بسهم هوى غير صائب
بت من حيو على مثل شوك العقارب (١)

وللخالدي يشتب بفتي متذهب في الدير الاعلى بالموصل :

فر بدير الموصل الاعلى انا عبده وهواه في مولى
لم الصليب فقلت من حسده قبل الحبيب في بها اولى (٢)

ولاحد الشعراء في فتى راهب في دير اللج بالحيرة جمع بين حسن الوجه

والصوت « اذا رجع الانجيل اهتر مائداً » :

سقى الله دير اللج غيثاً فانه على بعده دير الى حبيب
قريب الى قلبي بعيد محله وكم من بعيد الدار وهو قريب
يجب ذكراه غزال بماله اغن سحور المفلتين ربيب
اذا رجع الانجيل واهتر مائداً تذكر محزون الفؤاد غريب
وهاج لقلبي عند ترجيع صوته بلابل اسقام به ووجيب (٣)

وللجلال ابن الصقار الماردني يتغزل بشماس وهو مما تُغني به :

برق بدا ام ثورك المنعوت ام لولو قد ضمه ياقوت
يا للنصارى برقعوا شماسكم قبل الضلال فانه طاغوت
ما قام اقنوم الجبال بوجهه الا وفي ناسوته اللاهوت
يشاقه قلب اليه طائر صب وطرف حائر مبهوت
فأحسن فان الحسن وصف زائل واصنع جميلاً فالجمال يفوت
واستبق من اهل الغرام ولا تجر فيقيدوك دماهم ويموتوا (٤)

ونظيره قول ابن نباتة المصري في شماس وهو غاية في الظرف والاجادة :

لله ظبي كنيسة لاحظته فكأنها لاحظت ظبي كناس
يلو محاسنه ويتلو صحفه ناهيك من شمس ومن شماس

(١) ديوانه، ص ٥٢-٥٣

(٢) معجم البلدان ٢ : ٦٤٤

(٣) معجم ما استمعتم للبكري، ص ٢٦٦

(٤) جزء من مسالك الابصار للعسري في المتن والمفنيات، باريس رقم ٥٨٧٠، ص ١٧٣

عجباً له في دين عيسى كيف قد اضحى يعارض حكمه بقياس
هذاك احيا الناس من موت وذا في الحب قد وافى بموت الناس
من اجل مبسمه الشهي تفتحت في كفه ابداً شفاه الكاس
وكأنما مدَّ اليدين صليبه ينبغي عناق قوامه المياس (١)
وفي هذا البيت الاخير تحيل غريب ولا بن خطيب داريا في دير مار الياس
في داريا قصيدة اولها :

هات اسقني الصبء يا مؤني قد فاح نشر الورد والندرجس
يقول فيها :

هذا هو العيش ومن لي به في دير مار الياس او بطرس
في فنية شبه بدور الدجى اذا بدوا في اسود الملبس
رهبان دير طيب اخلاقهم اصفى من الراح المستانس
اكثر الفاظهم اشرب فلا اسمع : لا أفت ولا أدرس
ما لي وللفقه واصحابه يا نفس منهم أن ان تيأسي (٢)

ولاي علي حسن الغزي في رهبان دير المصلبة بظاهر القدس :
ومزمرين اذا تكلوا انجيلهم وتعطفوا نتجائم وغصون
زرعوا القلانس والمسوح فزحزحت منهم عن غرر الشموس دجون
وسعوا بكاسات المدام وما دروا ان الكؤوس الدائرات جنون (٣)
وللسري الرفاء يتشوق الى دير يوسف بالموصل ويصف راهباته . وكنى عن
الراهبات بالدمى النواطق :

كم دمنة خرساء فيه ودمية فضلت عليها باللسان الناطق
ومنهف لو كنت املك امره بدلت سحق مسوحه بقراطق
كم قد رقت به المني فغشيتها ما بين مسروق الجمال ورامق
ومعدل اخذ الصبا يمينه فجري به جري الجموح السابق
ورقدت من غزلان وذئاب ما بين مسروق الجمال وسارق (٤)

ومن الغزليات في الجوارى الراهبات قول ابراهيم بن القاسم الكاتب المعروف
بالرقيق القيرواني يذكر إدمانه السكر في دير القصير بصر ومنادمته لاحدى

(١) ديوانه ، طبعة مصر سنة ١٩٠٥ ، ص ٢٧٠

(٢) الرابع . من المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي لابن تغري بردي ، الخزانة النيسورية ،

ص ٦١٧-٦١٨ (٣) مسالك الابصار ص ٢٤٠

(٤) ديوان السري الرفاء في مجموع رقم ٣٠٩٨ ، في خزانة باريس ، ص ١٤٧

رواهبه :

وكم بث في دير القصير مواسلاً نخاري بليلي لا أفيق من السكر
تبادرني بالراح بكر عزيزة اذا هتف الناقوس في غرة الفجر
مسيحية خوطية كلما انثنت تشككت اذى الزنار من رقة المحصر (١)

... وقد اشرفنا قبلاً الى تلتطف بعض المترددين على القلاي والاديار في مخادعة
الملاح فيها، والتظاهر بالتقرب من النصرانية، والتزيي بزي اهلها ومخالطتهم لهم في
الكنائس لتأليف قلوبهم واستدامة معاشرتهم. ومن الابيات المروية في ذلك قول
عبدالله بن العباس بن الفضل في شادن من الرهبان في دير قوطا بالبردان من
نواحي بغداد على شاطئ دجلة :

يا دير قوطا ، لقد هيّجت لي طرباً ازاح عن قلبي الاحزان والكرباً
كم ليلة فيك واصلت السرور بها لما وصلت به الادوار والنخباً
في عصبة بذلوا في القصف ما ملكوا وانفقوا في التصابي المرض والنشبا
وشادن ما رأت عيني له شياً في الناس لا عجباً منهم ولا عرباً
اذا بدا مقبلاً ناديت واظرباً وان مضى مُمرضاً ناديت واظرباً
اقت بالدير حتى صار لي وطناً من اجله ولبست المسح والصلبا
وصار شمسه لي صاحباً واخاً وصار قسيسه لي والدّاً واباً (٢)

ومن ابيات الكندي المنبجي حين مرّ بدير مار ماعوث :
ولقد ساكت مع النصارى كل ما سلكوه غير القول بالثالث
بتناول القربان ، والتكفير للصلبان ، والتسبيح بالطيبوث
ورجوت عفو الله متكللاً على خير الانام نبيه المبعوث (٣)
ولما زار ابن جناح دير قزمان في ضواحي حلب قال : رأيت فيه شماساً امرد
كاليد بقدّر يقد القلوب . فانفذت اليه ليحضر عندنا فامتنع ، فأنسته وجعلت لا
افارقه . وتناولت معه القربان ودخلت معه كل مدخل الى ان أنس بي وعاشرني
وقلبي معه وقلت :

يا دير قزمان كم لي فيك من وطر قضيتك فسفك الله ختنا
اقت فيهِ أسقى من مشعشة تنفي بسورخا هماً واحزاناً
منادماً قسه دهرًا وربنا نادمت قساً وشماساً ورهبانا

(٢) معجم البلدان ٢ : ٦٨٩

(١) ارشاد الاريب لياقوت ١ : ٢٩١

(٣) معجم البلدان ٢ : ٧٠١

وفيهم قر في ليل مدرعة على قضيب حوى حسناً واحساناً
فلم ازل انا اسمى في تبسطه وقد اخذت لقربي منه قربانا
حتى استكان الى وصلي ونادمي وكان من بعد ذا منه الذي كانا (١)

ومن ادلّ الشواهد على ان كل هذا الذي زعموه من لبس الصليبان وتناول
القربان لم يكن الا على سبيل العبث والهزل ومن باب التنادر والتطرف في الشعر
قول الوليد بن يزيد في زيارته دير يُوْنَى بدمشق:

فاخذنا قربانهم ثم كفرنا لصلبان ديرهم فكفرنا (٢)

ومن ترى يصدق ان الخليفة نفسه يمازح الرهبان هذا المزاح ويرتكب مثل
هذا الكفر في الشرع؟ وهل هذا القول ونظائره الا خدعة من خدع الشعر،
وأغنية من اغاني الغزل والسكر؟

وبمثل هذا النقد والانكار يجب ان يتلقى المؤرخ اخبار منادمة بعض فتيان
الرهبان والراهبات لزوار الاديار وشرب المدام، فان هذه المجاملة منهم لم تكن
في الحقيقة الا خوفاً وتقيةً ومصانعة ومداراة، وبما يثبت ذلك ان الراهب كان
لا يكاد يتخلص من سخرة مجلس الشراب والغناء حتى يبادر تَوّاً الى موقفه
بين صفوف المصلين « النعارين في السحر » كما سماهم ابن المعتز، حكى الشاعر
المعتصمي في كتاب الديرة للسميساطي قال: « نزلت دير القائم الاعلى فرأيت فيه
راهباً اسرد لم تر عيني احسن منه وجهاً وقداً، فسألته ان يجلس لاشرب على
وجهه، فجعل يسقيني ليأتي، فلما قارب طلوع الفجر نهض الى صلاته فسمعته يقرأ
مزماريه بصوت ما رأيت قط اشجى ولا اطيب منه، فعلق قلبي به، وتنبهاً مسيره
في غد فقلت فيه:

رأيت البدر مجلواً بدير القائم الاقصى
له عينان لظهما مطاع الامر لا يعصى

الى بقية ما هنالك من ابيات امحت سطورها، وختمها بقوله:
فقام ينصّ مزماراً بالغان له نصاً (٣)

(١) بغية الطلب في تاريخ حلب لابن العديم Add. 23354 f^o 138^b

(٢) الخزانة الشرقية (المشرق ٣٦ [١٩٣٨] ٤٨)

(٣) جزء من بغية الطلب في تاريخ حلب لابن العديم، خزانة بريتيش، وندروم

الامور والاعاجيب

في الحانات وملحقات الاديار

لاحدهم في حانة دير اللج ابيات قال فيها يصف مجلسه مع اصحابه ، وما
اهاجته فيهم سورة الخمار من ثورة الشهوات :

حق اذا الخمر مالت بنا جرت امور واعاجيب (١)

ومن اقبح هذه « الامور والاعاجيب » تهتك بعض الاضياف والخلعاء في
عشرة غلمانهم وقتيائهم بجوار بيوت الصلاة ، والخواوة بهم في القلالي والحانات ،
بجيث اصبحت احياناً ملتقى العشاق ومأوى الفساق . وهو ما لا يكاد يصدق
لاول وهلة ، لولا تضافر الاخبار والاشعار على اثباته ونفي كل ريب فيه . ومن
اصرح ما يشهد بذلك ما حكاه بعضهم قال : « حصلت يوماً بعكبرا في بعض
الحانات فشربت اياماً بها . . . وقرأت يوماً على جدار البيت الذي كنا فيه :

ايها المغممون بالحانات والمغنون في هوى الفتيات
ومنى استنفدت كروم بزوغى فأوانا (٢) امواله ، فالغرات
قد شربنا المدام في دير ماري « وأصبنا » البنين قبل البنات (٣)

والطف تصريحاً منه قول ابي نواس في دير نهراذان ، وهو من اصدق
الوصاف لما كان يجري في ملحقات الاديار ، وفي بعض الاعياد النصرانية :

بدير خراذان لي مجلس وملعب وسط بساينيه
رحت اليه ، ومعى قينة ، تزوره يوم سمانينه
بكل طلب الهوى فاتك قد آثر الدنيا على دينه
حتى توافينا الى مجلس تضحك الوان رياحينه
والترجس الغض لدى ورده والورد قد حُفَّ بنسرينه
وجيء بالذن على مرفع وخاتم العليج على طينه

(١) مسالك الابصار ، ص ٢٢٦

(٢) بزوغى كانت من قرى بغداد قرب المزرقة ؛ بينها وبين بغداد نحو فرسخين . واوانا
بلدة كانت كثيرة البساتين والشجر ترهه من نواحي دجيل بغداد (معجم البلدان ١ :
٢٠٦ و٢٩٥)

(٣) معجم البلدان ١ : ٢٩٥

وطاف بالكأس لنا شادن يديه من الكف من لينة
يكاد من إشراق خديه ان يختطف الابصار من دونه
فلم يزل يسقي ، ونلهو به ، وتأخذ القصف بأيديه
حتى غدا السكران من سكره كاليت في بعض احايينه (١)

وشتان بين هجر البيت الاخير من ابيات دير مار ماري المتقدمة وادب
لفظ ابي نواس « نلهو به وتأخذ القصف بأيديه » اي برسومه وقوانينه وشروطه .
ويستفاد من حسن اوصاف ابي نواس ان مجالس اللهو والقصف والشرب
والغناء ، ومعاشرة القيان والغلمان ، كانت تكون غالباً في الرياض والبساتين بين
الازهار والرياحين . وانما كانت تُنسب خاصة الى الاديار حتى يُظن انها جرت وراء
جدرانها وفي جوار بيعتها ومعابدها ، لاضافة الحانات والحداثق اليها واشتهارها
باسمها .

وقد اشرنا قبلاً الى بعض هذه المجالس المنكرة في كلامنا على دور الضيافة
(ص ٥٨ - ٦١) ومن اظهر الشواهد على ما كان يتفق هنالك احياناً من تهتك
وخلاعة ، ابيات رواها ياقوت الكلاب بن حمزة ، المعروف بابي الهندام (او
الهيذام) ، من اهل حرّان ، في باعوث دير زكّى . وهي اصدق مثال لما كان
يجري قديماً في الاعياد والمواسم النصرانية . وفي ظل القلائي والحانات من
تعرض المسلمين للمواكب . واختلاط الرجال منهم بالنساء ، وقتلتهم القتيات
والفتيان . واستباحتهم للذمم والاعراض :

بين النواقيس والتفديس آونة وتارة بين عيدان ونايات

قال ابو الهندام في دير زكّى . ولا يخلو وصفه من الظرف . نجتزئ منه بما هو

ادل على المراد من تعريف المهرجانات النصرانية :

سقياً لحرّان انه بلدٌ اصبح للّهو ، وهو ، ضارٌ
في يوم باعوثهم ، وقد نشروا الصلبان ، والمسلمون نُظَّارُ
فن مهاة هناك مقبلة ومن غزال عليه زنار
ازحم هذا ، وتلك ترحمني ، وفي الحشا والفؤاد إسعار
فعارضتي هناك شاطرة منهم بها في الذراع أسوار
تقول لي ، والدلال بصرعها أنحن ، يا مسلمون ، كفقار

فقلت يا غايقي وبا أُملي بل انتم المؤمنون اخيار
اطلب منها بذاك تقربةً والشعراء الخبثاء فُجَّار
فرق لي قلبها وملتُ بها في دير زكِّي (١) ونعمت الدار
تقول لي عند وقت منصرفي انك من بعدها لعدَّار
حللت عقد الامان منك لنا فما لعقد لديك إمرار
فقلت قد كان ذاك عن خطا لا قُود عندنا ولا ثار
استغفر الله ، ثم اسأله السُتوب ، فلي بالذنوب اقرار (٢)

وانكس ما في هذه الابيات ، مع ما اتصفت به من طلاوة وحلا ،
قوله : « وملتُ بها في دير زكِّي » كأن حانات الاديار في ذلك العهد كانت
دوراً للريبة والفجور . يطمئن فيها الغاصب . ويأوي اليها الفاسق . ولذلك مدحها
بقوله « ونعمت الدار » . ويظهر ان الحال كانت على مثل ذلك ايضاً في مصر ،
كما يُستدل مما رواه العمري بلفظه وسجعه قال :

« حكي ان السراج الوراق وابا الحسين الجزار خرجا في عهد صباهما .
والشباب اعقدُ حباهما . يريدان التزفة . فوجدا غلاماً زامراً يُتمنى منه اللقاء . ويجتمع
فيه الفصن والورقاء . يتلفت بصفحة القمر المنير ويُطرب كأنما زمره مما أُوتي آل
داود من المزامير . فلفقاء اليها لأمر . وظناً انه ستلينه لها الخمر . فأتيا به دير
شعران . وصعدا اليه فوجدا راهباً يصدع حبه الفؤاد . ويطلع قره ولا شيء . احسن
منه في ذلك السواد . فزاد سرورها بحصول الزامر والراهب . وابقنا بباوغ المآرب .
فلما حميت فيهما سورة الحميا ، وظن كل منهما انه قد حصل له فراشه وتها . فطن
الزامر والراهب لمرادهما فتركاها ومضيا قبل التام . وتركاهما وكل منهما يشكو
ضجيجاً لا ينام

فقال السراج :

في فخذنا لم يقع الطائر لا راهب الدير ولا الزامر

(١) ضبط في التاج دير زكِّي بالياء المشددة اي زكِّي كعلي (٣ : ٢٢١) وهو خطأ
صريح . والصواب زكِّي بالالف المفصورة كما ورد في هذا البيت . وعنهم ضبطه ايضاً
البكري في معجم ما استعجم (ص ٢٧٧) قال هو بفتح الزاي وتشديد الكاف واسكان الياء
ولم يقبته الى وروده بالالف المفصورة في بعض الابيات التي استشهد بها .

(٢) ارشاد الاديب ٢٠٩ : ٣١٠ - ٣١١

فقال ابو الحسين الجزار:

فسعدنا ليس له اول ونغسنا ليس له آخر

فقال السراج:

فالقلب في اثرهما هائم

فقال الجزار:

والقلب من اجلها حائر (١)

ومما يزيد في مغزى هذه الحكاية طموح الشعاعين الى الراهب ايضاً « وقد ظن كل منهما انه قد حصل له فراشه وتهيأ » . ومن تأمل بعين الروية والاعتبار هذه الشواهد باسرها يدرك بطل الاسف والاكتئاب علة قول ابن عاصم المصري في دير طمويه من قرى مصر:

منازل كنت مفتوناً بها يفعماً وكنّ قدماً مواخيري وحاناتي (٢)

وقد يعجب القارئ من رضى الرهبان بمثل هذه السمعة الشائنة وإغضائهم عما كان يحدث ضمن قلاييمهم احياناً . وفي ظل موطن النسيك والتبطل من اصناف المخازي والمنكرات . ولكن اذا تذكر حرج موقف الاديان في دار الاسلام . وتعرضها في كل حين لاطار الضيافة . ووقوعها تحت سلطة الولاة والمتغلبين . وتمثل ذلة رؤسائها بين يدي ارباب الدولة واعوان الحكم والظلم . يدرك عجز الرهبان عن صيانة حاناتهم وافنيتهم من الامتهان والابتذال . وصيانة بعض فتيان شماسيتهم من شبهات الريب والشكوك . ومن افصح الادلة وانصع البراهين على هذه الحال الشيعة حادثة جرت في الرها ودير زكّى بالركة . توشك ان لا تصدّق لولا ثقة روايتها . وهي منقولة عن كتاب الديارات لابي الفرج الاصبهاني . وروايتها اصح مثناً من رواية ارشاد الاربب لياقوت (٢: ٢٢-٢٦) قال الصنوبري الشاعر المشهور:

« كان بالرها ورّاق يقال له سعد . وكانت دكانه مجلس كل اديب . وكان حسن الادب والتفهم يعمل شعراً رقيقاً . فما كنا نفارق دكانه انا وابو بكر المعوج الشامي الشاعر وغيرنا من شعراء الشام وديار مصر . وكان لتاجر بالرها نصراني

(١) مسالك الابصار ، ص ٢٦٢-٢٦٨

(٢) معجم البلدان ٢ : ٦٧٥

ابن اسمه عيسى من احسن الناس وجهاً واحلاهم قدراً واطرفهم طبعاً ومنطقاً .
وكان يجلس الينا ويكتب عنا من اشعارنا . وجميعنا يحبّه ويميل اليه وهو يومئذ
صبي في الكتاب . فعشقه سعد الكتبي عشقاً مبرحاً . وكان يعمل فيه الاشعار .
فمن ذلك قوله وقد جلس عنده في دكانه :

اجعل فؤادي دواة والمداد دمي وهاك فابر عظامي موضع القلم
وصير النوح وجهي والحنه يدي فان ذلك برئ لي من السقم
تري المعلم لا يدري بن كلفي وانت اشهر في الصبيان من علم

ثم شاع في الرها خبره بعشق الغلام . فلما كبر الصبي احب الترهّب وشاور
اباه وامه في ذلك والحق عليهما حتى اجاباه وخرجا به الى دير زكي بنواحي
الركة . وهو في نهاية الحسن . فابتاعا له قلالية ودفعا الى كبير الدير جملة من المال
عنها . فاقام الغلام فيها وضاعت على سعد الوراق الدنيا بما رحبت . واغلق دكانه
وهجر اخوانه . ولزم الدير مع الغلام . وهو في خلال ذلك يعمل الاشعار في الغلام .
فانكر الرهبان على الغلام كثرة إلّام سعد به ونهوه عنه . وحرّموه ان ادخله
قلاليته وتوعّدوه بخروجه من الدير . فاجابهم الى ما سألوه من ذلك . فلما رأى سعد
امتناعه عنه شق عليه . وخضع للرهبان ورفق بهم فلم يجيبوه . وقالوا في هذا اثم
وعار ونخاف السلطان فكان اذا وافى الدير اغلقوا في وجهه الباب ومنعوه من
دخوله . ولم يدعوا الغلام يكلمه . فاشتد وجده به وزاد عشقه الى ان صار
الى الجنون . فحرق ثيابه وانصرف الى داره وضرب جميع ما فيها بالنار وكذلك
دكانه . ولزم صحراء الدير وهو عريان يهيم ويعمل الاشعار .

قال ابو بكر الصنوبري : ثم عبرت يوماً انا والمعوج الشامي من بستان بتنا
فيه . فرأيناه جالساً في ظل الدير وهو عريان وقد طال شعره وتغيرت حاله . فسلمنا
عليه وعذلناه وعنفناه . فقال دعاني من هذا الوسواس . أترّيان ذلك الطائر الذي
على هيكل الدير ؟ واوماً بيده الى طائر هناك . فقلنا نعم . فقال انا وحقكما
يا اخوي اناشده منذ الغداة ان يسقط فاحمله رسالة الى عيسى . ثم التفت الي
وقال يا صنوبري أمعك الواحك . قلت نعم . قال اكتب :

بحقك ، يا حامة دير زكي ، وبالانجيل عندك والصليب
قفي ، وتحملني مني سلاماً الى قر على غصن رطب

عليه مسووحه واضاء فيها فكان البدر في حال المغيب
جماه جماعة الرهبان مني فقلبي ما يفر من الوجيب
وقالوا رابنا الماس سعد ولا واقتر مسا انا بالمريب
وقولي سعدك المسكين يشكو لبيب جوتي احتر من اللبيب
فصلته بنظرة لك من بعيد اذا ما سكنت تمنع من قريب
وان انا مت فاكتب حول قبري محب مات من هجر الحبيب
رقيب واحد تنفيس عيش فكيف بن له مائتا رقيب

ثم تركنا وقام يعدو الى باب الدير فوجده مغلقاً فانصرفنا عنه . وما زال كذلك زماناً ثم وُجد في بعض الايام الى جانب الدير ميتاً . وكان امير البلد العباس بن كيغاغ . فلما اتصل ذلك به وباهل الرها . خرجوا الى الدير وقالوا ما قتله غير الرهبان . فقال ابن كيغاغ لا بد من ضرب رقبة الغلام واحرقه بالنار وتعزير الرهبان بالسياط . وتصعب في ذلك . فاقتدى الرهبان نفوسهم وديروهم بمائة الف درهم . وكان الغلام بعد ذلك اذا دخل الرها لزيارة اهله صاح به الصبيان «يا قاتل سعد الوراق» وشدوا عليه بالحجارة يروحونه . وزاد عليه الامر في ذلك حتى امتنع من دخول المدينة . ثم انتقل الى دير سمعان وما ادري ما كان منه .^(١) ولا حاجة الى التنبيه على ما لهذه الحكاية من الخطر والشأن في الدلالة على ما كان عليه القوم في ذلك العهد من اخلاق ومساوئ وبغي وادعاء . وتحكم في الديارات . واغرب ما هنالك ارادة امير الرها ضرب رقبة الغلام واحرقه بالنار جزاء تعفقه وامتناعه . وتعزير الرهبان بالسياط وهي الطامة الكبرى . ولعل كل ذلك يشفع في نظر المؤرخ لبعض ضعفة الرهبان في إيشار المداراة والمصانعة في الارتفاق . ويقيم لهم العذر في الإغضاء عما كان يجري حولهم ، وعلى رغم منهم ، من الفضائح والقبايح . ومن هذا الخبر الجدير بالعبرة والاستبصار يتضح حرج موقف الديارات وما كانت عرضة له من الاخطار والنكبات . وما كان يحل بها من آونة لآخرى من عوادي الظلم والاستبداد لعجزها عن التصون والاتقاء بين شعب قاهر . وفي دولة سلطان جائر .

(١) الجزء الثالث عشر من عيون التواريخ للكتبي ، من مخطوطات الظاهرية بدمشق رقم ٤٩ ، في حوادث سنة ٤٢٦ للهجرة (١٠٣٤/٥ م)

التردد الى الكنائس والاديار

للنظر الى غلمان النصارى ونسائهم

بين شواهد النجو بيت منسوب للاختل ، وليس في ديوانه ، قيل فيه :
ان من يدخل الكنيسة يوماً يلقَ فيها جاذراً وظباءاً (١)

وهذا البيت كان قائد كل متفرج في الآحاد والاعياد . وكل متطرح في القلالي والديارات . وقد اشتهر مدرك بن علي الشيباني بملازمته دير الروم في بغداد في خلق كانوا يقصدونه لاستجلاء من فيه من الوجوه الحسان . وله فيه :

وجوه بدير الروم قد سلبت عقلي فاصبحت في بوئس شديد من الخبل
فلم ترَ عيني منظرًا مثل حسنهم ولم ترَ عينٌ مستهائمًا بهم مثلي
فكم من غزال قد سبي العقل لحظه ومن ظبية رامت بالحاظها قتلي (٢)

وفي دير الروم لقي عمرو بن يوحنا النسطوري وعلق به وجن . ونظم فيه قصيدته المشهورة :

من عاشق ناء ، هواه داني ناطق دمع صامت اللسان (٣)
وهي التي مشى فيها على سنن ابي نواس في قصيدته الآتية الذكر وجمع فيها كل ما حفظه من اقسام النصارى بمسيحهم وروح قدسهم وقدايسهم وقديسيهم وحواريهم واحبارهم ومعابدهم . وامثال هذه القصائد جديدة بالدرس لما ورد فيها من ذكر اولياء النساورة وخصائصهم ومصطلحاتهم واحتفالاتهم . وعلى شاكلتها قصيدة بكر بن خارجة في عشير بن البراء الصراف من نصارى الحيرة . وله فيه شعر كثير يذكر فيه مواسم النصارى وقرابينهم واديارهم ومشاهير بيعتهم ومنه قوله :

بمارت مريم ، وبدير زكسى ، ومر توما ، ودير الجاثليق
وبالانجيل يتلوه شيوخ من الفسآن في البيت العتيق

(١) خزائن الادب للبغدادى ، ص ٤١٢

(٢) معجم البلدان ٢ : ٦٦٢ ، ومسالك الابصار ، ص ٢٧٢

(٣) ارشاد الاربيب ٢ : ١٥٤-١٥٨

وبالقربان ، والصابان ، ألا رثيت لقلبي الدنيف المشوق
أجرني ، متُ قبلك ، من عموم وأرشدني إلى وجه الطريق
فقد ضاقت عليّ وجوه اسري وانتَ المستجار من المضيق (١)
ولا شك ان المجلي في هذه الحلبة هو ابو نواس في قصيدته التي نظمها في
عبد يشوع بن مار سرجس وأولها :
بعمودية الدير العتيق ، بمطرُ بليطها ، بالجائليق
وهو القائل في غيره من غلمان النصارى هذه الابيات وهي جديدة ان توضع
عليها اليد :

لَبِقُ بديع الحسن لو كلمته لنبت دينك كله من حالق
والله ، لولا اتني متخوف ان أبلى بامام جور فاسق ،
لتبعته في دينه ودخلته ببصيرة فيه دخول الواق
اني لاعلم ان ربي لم يكن ليخصه إلا لدين صادق (٢)

وللشعراء في الاسلام قصائد ومقطعات شتى على هذا النمط . تغزلوا فيها
بفتيان النصارى وفتياتهم . يحسن جداً ان تجمع وتطبع لفائدتها في تاريخ النصرانية
في الاسلام . نختار منها شاهدين فقط نوردهما مثلاً عليها . الاول قول ابي محمد
الحسن بن علي بن وكيع التميمي في غلام قد شد في وسطه الزنار ، وفيه نظر
الى ابيات ابي نواس المتقدمة :

فَضَّلَ الغصون لانها من غرسنا ، عند التأمل ، وهو غرس الباري
قد غيَّب الزنارَ دقةً خصره حتى ظنناه بلا زنار
متنصّر قويث على إسلامنا بالحسن منه حجة الكفار
قالوا : أيصنع مثل هذا ربكم ويرى فساد صنيعه بالنار (٣)

والثاني من نظم احد شعراء المغاربة يخاطب به راهبة في دير ريفة من
صعيد مصر :

عساك ، بحق عيساك ، مريحة قلبي الشاكي
فان الحسن قد ولأ كإحيائي واهلاكي
واولائي بصلبان ورهبان ونسأك

(١) معجم ما استمعتم ، ص ٢٧١

(٢) ديوانه . باريس (٢٨٣) ، ص ٨٢ و ١٢٥

(٣) يتيحة الشعالبي ، طبعة مصر : ١٢٢٥-٢٢٦

ولم آتِ الكنائس عن هوى فيهنّ ، لولاك (١)
 وكان الشاعر الثرواني كثير الإلمام بالبيع والاديار ، معروفاً فيها بالعبث
 والهزل والاستهتار . حكى عنه جاره في الكوفة حمزة بن ابي سلامة قال :
 « باكرني في يوم شعانين وقال لي اعزم بنا اليوم على الشرب في دير الحريق لانه
 يوم سيقصده فيه خلق . ولي به صديق من رهبانه ظريف مليح القلاية جيد
 الشراب . فهلمّ نزه اعيننا في ما نراه من الجواري والغلمان . ثم نعدل الى قلاية
 صديقنا فنشرب على سطحها المشرف على الرياض . فخرجنا فرأينا من النساء
 والوصائف والولدان في الحلي والحلل ما لم أر مثله قط . فلم يزل يعبث ويتعرض
 ويقبل ويعانق . وكان معروفاً بذلك فما احد ينكر عليه فعله الى بعد الظهر . ثم
 اتينا قلاية صديقه الراهب فلقيه بالاكرام والترحاب . فدخلنا قلايته . فما رأينا
 انظف من آلاتها ولا انضر من بستانها . ثم قدم لنا شيئاً من طعامه فأصبنا منه .
 ثم صعدنا سطحها وجلسنا ننظر الى منظر يبهر حسناً وجمالاً . من رياض وغدران
 وطير يصفر . ونحن نشرب حتى ثلثنا وغنا هناك . وغدونا الى الكوفة . فقلت له
 تترك هذا اليوم مع حسنه عاطلاً من حلي شعرك ؟ فقال لا والله . واقد عملت في
 في ليلتي هذه الابيات :

خرجنا في شعانين النصارى وشيعنا صليب الجائليق
 فلم أرَ منظرًا احلى بعيني من المتقيّات على الطريق
 حملن الخوص والزيتون حتى بلغت به الى دير الحريق
 اكناهنّ باللاحظات عشقاً واضمرنا لهنّ على الفسوق (٢)

وهذا البيت الاخير لسان حال كل شاهد من شهود المسلمين في المواسم
 النصرانية .

ومن احسن اوصاف مواكب النصارى في الاعياد . وبرز النساء فيها بالحلي
 والحلل بعضهنّ « على العجل » . وبعضهن على الشهاري والبغلات المصرية والحمر .
 ما حكاها الحسن بن يعقوب قال :
 « صرت الى الرها فبتُ بها . وخرجت قبل عيد الصليب بيوم . فاذا لدينا

(١) مسالك الابصار ، ص ٢٨٦

(٢) مسالك الابصار ، ص ٢١٥-٢١٦

وجوه حسان من نصرانيات خرجن ليعيدهن . عليهن جيد الثياب وفاخر الجواهر .
 واذا روائح المسك والعنبر قد طيّب الهواء . منها . وقد فرش لهن على العجل . وهو
 يُجَرَّ بهن . وأخريات على الشهاري الخراسانية والبغلات المصرية والحمر النُفَره .
 ومشاة . وفي خلال ذلك صبيان ما رأيت احسن منهم وجوهاً وقُدوداً وثياباً .
 فتأملت منظراً لم أر احسن منه قط . واذا هم يطلبون دير زكي ليعيدوا فيه .^(١)
 ومن كان لا يفارق الكنائس في الاعياد ، شغفاً بفتاة نصرانية رآها وعلق
 بها ، عبدالله حفيد الفضل بن الربيع ، وزير الرشيد والامين . « خرج في عيد مار
 سرجيس فظفر بها في بستان الى جانب البيعة . وكان قبل ذلك يرأسها ويعرفها
 حبه لها . فلا تقدر على مواصلته ولا على لقائه الا على الطريق . فلما ظفر بها التوت
 عليه وأبّت بعض الإباء . ثم ظهرت له وجلست معه واكأوا وشربوا . واقام معها
 ومع نسوة كنَّ معها اسبوعاً ثم انصرفت في يوم خميس . فقال عبدالله بن العباس
 في ذلك وغنى فيه :

رب صهباء من شراب المجوس	قوة بابلية خندريس
قد غلبتها بناي وعود	قبل ضرب الشمس بالناقوس
وغزال مكحل ذي دلال	ساحر الطرف بابلي عروس
فد خاونا بطييه نجتايه	يوم سبت الى صباح الخميس
بين آس وبين ورد جني	وسط دير القديس ما سرجيس
ينثني بحسن جيد غزال	ذي دلال مفضض آبنوس
كم لثمت الصايب في الجيد منه	ككهلل مكحلل بشحوس» (٢)

وبالجملة ان تعرض المسلمين للنظر الى ولدان النصارى وحورهم في الكنائس
 كان في كل المدن الاسلامية . ولذلك قال ابو العلاء . في لزومياته :
 فلا تعرض في طريقك ناظراً نساء النصارى غاديات الى الكُنُس

(١) مسالك الابصار ، ص ٢٧٢

(٢) الاغانى ١٧ : ١٢٦ ، ومعجم البلدان ٢ : ٦٩٣

الشرب والغناء

على نغم الرهبان وضرب النواقيس

كان المترددون الى الاديار للتزده والقصف وشرب الصبح والغبوق ، ومعهم المغنون والقيان ، كثيراً ما يسمعون بالقرب منهم صلوات الرهبان والحنانهم فربما حركت هذه الاغان من طربهم واستخفت اصواتها اشواقهم . فتبادلوا الكؤوس على ايقاعها ، او تحدثوا في غنائهم ضرب النواقيس . والى هذه العادة اشار الثوري بقوله :

اشرب على قرع النواقيس في دير اشموني بتفليس
لا تخف شرب الكاس ، والليل في حد نعيم لا ولا بوس
الا على قرع النواقيس او صوت قيسان وتشميس
وهكذا فاشرب ، والا فكن مجاوراً بعض النواويس (١)

ومن الديارات التي اشتهرت بهذا الطرب دير مارت مريم بين الخورنق والسدير . وهو دير قديم من بناء المنذر مشرف على النجف . قال ابو الفرج الاصبهاني : « كان فيه قس يقال له يحيى . وله ابن يقال له يوشع . يالفه الفتيان الظرفاء . ويشربون عنده على قراءة النصارى وضرب النواقيس . » (٢) ونظيره عمر نصر في سر من رأى . وهو من متزهات آل المنذر قديماً بالحيرة . قال الحسين بن الضحاك ، وكان كثيراً ما يالفه : اصطبحت انا واخوان لي في عمر سر من رأى . ومعنا ابو الفضل رذاذ . وزنم الزامر . فقرأ الراهب سفرًا من اسفارهم حتى طلع الفجر . وكان شجي الصوت جداً . ورجع من نعمته ترجيعاً لم اسمع مثله . ففتهمه رذاذ وزنم . فغنى ذلك عليه . وزمر هذا . فجاء له معنى اذهل العقول . وضحج الرهبان بالتقديس . قال الحسين فقلت :

يا عمر نصر ، لقد هيئت ساكنة هاجت بلابل صبب بعد اقصار
له هاتفة هبت مرجمة زبور داود طوراً بعد اطوار
لا حكاها زنام في تفننها فافتن يتبع زموراً بزمار

(١) معجم البلدان ٢ : ٦٤٣

(٢) معجم ما استعجم ، ص ٢٧١

عجّت اساقفها في بيت مذبحها وعجّ رهبانها في عرصة الدار (١)
وفي قوله «لله هاتفة» تصريح بان مرجع الزبور كان راهبة خلافاً لقوله
السابق انه راهب . وامل الاثنان اشتركا في التلحين . وكان لبعض الراهبات
الشاسات بل لبعض الجواري والفتيات ، في الكنيستين النسطورية واليعقوبية ،
حظ في خدمة الهياكل والقراءات . ولما زار الخليفة المتوكل على الله دير باب
الفراديس بدمشق ودخل البيعة مرّت به شعانين ابنة قس الدير . وعليها شارة من
شارات خدمة الكنيسة . ويدها مبخرة تبخر بها^(٢) . ومن الشواهد ايضاً قول
جحظة البرمكي يصف راهبات دير العَلث :

وظباء يتلون سفرًا من الا نجيل باكرن سحرة قربانا
لابسات من المسوح ثياباً جعل الله تحتها اغصانا (٣)

وقد اعتاد الشعراء ان يطلقوا لفظة «التلاوة او القراءة» على كل تلحين
للنصارى . وان يصفوا كل صلاة لهم بانها تلاوة من الانجيل او ترجيع من الزبور .
فلا شك ان ظباء دير العَلث كنّ يردّدن بعض الانغام البيعية حين سمعن جحظة
البرمكي . او على الاقل كنّ يشاركن فيها . ولكل التقديرين شأنه في تاريخ
غابر اخبار الفرق المسيحية في العراق .

ومن اطرف ما يروى في معنى الاخان النصرانية ان الغريض المغني المشهور
كان يستحسن بعضاً منها ويحيّد تحديداً وصياغة اصوات على مثالها . وهو ما حدث
به حماد بن اسحق عن ابيه قال : «سمع الغريض بعض اصوات رهبان بالليل في
ديرهم فاستحسنها . فقال له بعض من معه يا ابا يزيد صُغ على مثال هذا الصوت
لحناً فصاغ مثله في لحنه :

يا أمّ بكّر حبك البادي لا تصرميني اني غاد
فما سُمع باحسن منه .»^(٤)

وعندنا ان هذه الانغام التي اصغى اليها الغريض وشاقته كانت على الارجح

(١) معجم ما استعجم ، ص ٢٦٩-٢٧٠

(٢) الدر المنقط من كل بحر وسقط ، خزائن بريثش موزيوم Add. 19408

(٣) معجم البلدان ٢ : ٦٨١

(٤) الاغانى ٢ : ١٤٦

انغماساً رومياً . وقد اخذ العرب في بدء غنائهم كثيراً عن الروم . وبقي الغناء الرومي مأثوراً عندهم متداولاً في الحجاز والعراق والشام . حتى بين النساطرة واليعاقبة الاراميين . ومما يثبت ذلك ان الاعشى الشاعر المشهور كان يزور اساقفة نجران ويمدحهم ويمدح العاقب والسيد وهما ملكا نجران ويقوم عندهما ما شاء . فكانوا يستقونه الخمر ويسمعونه الغناء الرومي^(١) . وكان لجليلة بن الایهم النساني عشر قيان « خمس منهن يغنين بالعيدان بالرومية . وخمس يغنين بغناء اهل الحيرة . »^(٢) وسنذكر في الفصل الآتي الصوت الذي صاغه المغنون على مثال ضرب النواقيس وسنّره به .

النواقيس والاجراس

في الاديار والكنائس

قال القلقشندي : « اذا اراد النصارى الصلاة ضربوا بالناقوس . وهو خشبة مستطيلة نحو الذراع يضرب عليها بخشبة لطيفة فيجتمعون . »^(٣) فالناقوس غير الجرس . ولكن قد يُطلق عليه اقول لسان العرب : « الناقوس مضراب النصارى الذي يضربونه اوقات الصلاة . »^(٤) ومثل هذا التعريف يعم كل ما يُتخذ للتأذين في الصلاة .

وتسمّى العصا التي يقرع بها الناقوس « الوبيل » . يقال نقس بالوبيل الناقوس نقساً اي ضرب .^(٥) ونقست النصارى وانتقست اي قرعت الناقوس قال :
كأن اصوات لحييها اذا اصطفت اصوات عيدان رهبان اذا انتقسوا (٦)
وقد جمع الناقوس شذوذاً لضرورة الشعر على نواقيس بجذف الياء . ونُقُس على توهم حذف الالف منه . قال المرقش الاكبر :

(١) الاغاني ٦ : ٧٢

(٢) مختار من كتاب اللهو والملاهي تصنيف ابن خرداذبه ، من مخطوطات خزاتي

(٣) صبح الاعشى ١٣ : ٢٨٤

(٤) لسان العرب ٨ : ١٣٦

(٥) تاج العروس ٥ : ٢٦٣

وتسمع ترقاء من البوم حولنا كما ضربت بعد الهدوء النواقر
وقال الاسود بن يعقوب :

وقد سبأت لفتيان ذوي كرم قبل الصباح ولما تُفرع النُفُس (١)
وورد جمع النواقر غير مرة في شعر ابن عبد ربه . وقال في ارجوزته التي
مدح بها الخليفة عبد الرحمن الناصر مشيراً الى العدو :

فاقبل العالج لهم مغنياً يوم الخميس مسرعاً حينئذ

بين يديه الرجل والفوارس وحوله الصلبان والنواقر (٢)

ومن اوهام الشعراء وكتاب الدواوين ان خشبة الناقوس مقدسة في شرع
المسيحيين . وربما قرنوها بخشبة الصليب واقسموا بهما معاً في جملة الأيمان التي كانوا
يستحلفون بها النصارى . ومنه قول البحتري يهجو يعقوب بن الفرج الجهمي
النصراني مجلب :

فان كنت ادهنت ، او خنت ، او لمجت بظلمي في من لهج

فخالفت مريم في دينها ، وفارقت ناموسها المنتهج ...

وهذمت بيعة ما سرجس واطفأت نيرانها والسُرج

واوقدت ناقوسها والصليب تحت عشائك حتى نضج (٣)

وسبق البحتري ابو نواس فحلف بالناقوس وحده في ابيات ، قال فيها مخاطباً

عبد يشوع بن ماسرجس :

بمات مريم ، ويوم فصيح ، وبالقربان ، بالخمر العتيق

وبالصلبان ترفعها رماح تلاً لأ حين تومض بالبريق

وبالناقوس في البيع اللواتي تقام بها الصلاة لدى الشروق (٤)

وزاد الفضل بن الربيع ، وزير الرشيد ، في السخف حين اراد استخلاص
كاتبه عون النسطوري . فانتدب اسحق بن ابراهيم الموصللي المغني المشهور ان يتولى
ذلك منه . فقال له في جملة رقاعاته واقتذاره : خلعت النصرانية وبرئت من
المعمودية . وطرحت على المذبح حيضة يهودية ... والآ فشققت الناقوس وطبخت

(١) اساس البلاغة ٢ : ٤٧١

(٢) العقد الفريد ٢ : ٢٦٨

(٣) ديوانه . خزائن باريس ٣٠٨٦ ، ص ٧٦

(٤) ديوانه ، خزائن باريس ٤٨٣١ ، ص ٨٣

به لحم جمل وأكلته يوم الاثنين مدخل الصوم...^(١)
وربما كان الناقوس والوبيل من حديد وهو قليل . وعلى ذكر الوبيل عصا
الناقوس نقل الجاحظ ملحمة يطيب ايرادها هنا . قال :
« قال الشرقي بن القطامي : خرجت من الموصل وانا اريد الرقة مستخفياً .
وانا شاب خفيف الحال . فصحبني من اهل الجزيرة فتى ما رأيت بعده مثله .
فذكر انه تغليبي من ولد عمرو بن كلثوم . ومعه مزود وركوة وعصا . فرأيت
لا يفارقها . وطالت ملازمته لها فكدت من الغيظ عليه ارمي بها في بعض
الاوودية ... فقلت له في شأن عصاه (فعدد منافعها ومراققتها وأبان فوائدها في
اثناء السفر وهي سبعة) ... قال فلما صرت الى مفرق الطرق وادرت مفارقتها
قال لي : لو عدلت معي فبت عندي كنت قد قضيت حق الصحبة . والمزود قريب .
فعدلت معه فادخلني في منزل يتصل ببيعة . قال فما زال يحدثني ويطرفني ويلطفني
الليل كله . فلما كان السحر اخذ خشبة ثم اخرج تلك العصا بعينها فقرعها بها .
فاذا ناقوس ليس في الدنيا مثله . واذا هو احذق الناس بضربه . فقلت له ويلك
أما انت مسلم وانت رجل من العرب من ولد عمرو بن كلثوم . قال بلى . قلت
فلم تضرب بالناقوس . قال : « جعلت فداك . ان ابي نصراني وهو صاحب البيعة .
وهو شيخ ضعيف فاذا شهدته برأته بالكفاية » واذا هو شيطان مارد . واذا هو
اظرف الناس كلهم واكثرهم أرباً وطلباً . »^(٢)

وفي هذه النكتة شاهد على انه كان لضرب النواقيس في الاديار والكنائس
اساليب وافانين تختلف وتتباين بحسب حذق الناقس وخفة يده بالضرب وكان
الغالب فيه الضرب المقطع المكرر كصوت وقع حوافر الخيل في عدو الخبب .
او كصوت قطر الميزاب . ولذلك سمي العروزيون بجر الخبب من اوزان العروض
« دق الناقوس » عند سكون ثاني الجزء فيه . اي بتسكين عين فعَلَن . كقوله :
مالي مال الا درهم او برذوني ذاك الادهم

ومن الابيات النادرة التي أشير فيها الى احد انواع ضرب الناقوس قول ابن

(١) ديوان ابي نواس : الجزء الثالث ، رواية الاصبهاني ، باريس ١٩٨٣ ، ص ٧٦

(٢) البيان والتهيين ، المطبعة العلمية ، ٢ : ٦١-٦٢

الزنبقي المصري من أبيات في دير القصير بظاهر مصر :
 وضرب الناقوس فيه راهب ضرباً على ريش ، وضرباً بمجل (١)
 وقد تقدم من شهادة ابي الفرج الاصبهاني ان الفتيان الظرفاء كانوا يشربون
 على قراءة النصارى وضرب النواقيس ولذلك قال الثوراني :
 اشرب على قرع النواقيس او صوت قسآن وتشجيس
 وهو ما يدل على مقدرة الناقسين وإجادتهم ايقاع الانغام بالوبيل . ولا يخفى
 ما في ذلك من التفنن والإطراب . ولذلك لم ياب أحد متقدمي المعتن من معبد من
 تقليد اصوات الناقوس في هذا الشعر :

سلي دار ليلي هل تحيب فتنتق واني ترد القول يدهاء سحلق
 واني ترد القول دار ، كأنها ، لطول بقاها والتقدم ، مهرق

ودعي هذا اللحن لهذا السبب باسم « النواقيس » لتحذيه ايقاعها . ويظهر انه
 كان غريباً عجيباً . حتى انتهى الخلفاء انفسهم سماعه . قال ابراهيم بن خالد المعيطي :
 « دخلت على المهدي وقد وُصف له غنائي وعلمي به . وقال لي تغني النواقيس ؟
 قلت نعم والصليب يا امير المؤمنين . فصرفني » .^(٢)

ومن لطائف الشعر الذي قيل في ملبح راهب يجيد ضرب الناقوس :
 رأيت يضرب الناقوس قلت له من علم البدر ضرباً بالنواقيس
 وقلت للنفس : اي الضرب يؤملك ضرب النواقيس ام ضرب النوى ؟ قيسي (٣)

وللاقباط تقاليد في اصل اتخاذ النواقيس لا بأس ان ننقلها من حاشيتين
 قرأناهما في هامش كتاب « مجموع من القوانين البيعية » بآخر الباب الخامس منه :
 « في القداس والشباس » قال :

الاولى : استن الآباء ضرب الناقوس من قول الله في التوراة (تكوين) : ايام فرحكم
 واعيادكم وشهوركم اهتموا بالقرون على ذبائحكم الكاملة . ويكون لكم ذكراً امام الله
 ربكم .

الثانية : ذكر المؤرخون ان اول من ابتدأ بضرب الناقوس ابونا نوح عليه السلام عندما
 عمر السفينة . فانه كان يضرب بالناقوس عندما يستدعي الصنائع للعمل فيها كل يوم . وشهد
 ايضاً كتاب اسفار الملوك بان اليسع تلميذ الياض ضرب الناقوس لما سار بنو اسرائيل لمحاربة

(١) الديارات للشابشي ، ص ١٢٧

(٢) تاريخ الطبري ، طبعة اروپية ، ص ٥٤١-٥٤٢ T. S.

(٣) روض الآداب لآحمد بن الحجازي ، خزائن بريتش موزيوم 127¹⁰ , Or. 3843 f^o

الموايين ولم يحدوا ماء في الطريق يشربون . وتنبتاً لهم بان الوادي يتلى ماء . وان الله يسلم الموايين في ايدهم . (١)

وفي الشعر الجاهلي والاسلامي اشارات عديدة الى قرع النواقيس بالاستحار عند قيام الرهبان للصلاة . وقد أرق جرير من ضربها وقت صياح الدجاج حيث قال وهو بدمشق :

لما تذكرت بالديرين أدركني صوت الدجاج وضرب النواقيس (٢)
وكان الرهبان يقرعونها في الصباح والمساء عند اوقات الصلاة . وهو ما اشار اليه ابو نواس في ابياته التي وصف بها رهبان دير حنة وقال :
يكررون نواقيساً مرجعة على الزبور بإمساء وإصباح (٣)
وقد يوافق ضربها عند الفجر صوت المؤذن . ولذلك دعا ابن المعتز صوتها « تأذينا » حيث قال :

يا نديمي ، سقاني ، فقد لا ح صباح وأذن الناقوس (٤)
ومثله لعل بن اسماعيل من شعراء خريدة القصر :
قم قبل تأذين النواقيس واجل علينا بنت قيس (٥)
وقد انكر الفقهاء قرع النواقيس قبل اوقات التأذين . وعُدَّ ذلك في جملة ذنوب خالد القسري في الكوفة . قالوا : « كانت أمه نصرانية ولم يأمرها بالاسلام . وبني لها بالكوفة بيعة وساق اليها الاقساء . واقام الناقوس يضرب قبل اذان المسلمين عند صلاتها . فتكلم الناس في هذا وانكروا عليه »^(٦) ولهذا لما كان احد الاديار يهدم او يُغْتَصَب في الاسلام كان يقال فيه بلسان الفرح والاستبشار :
بعد الاناجيل آيات القران به تتلى ، وقد نسخ الناقوس تكبير (٦)
وربما كان قرع الناقوس داعياً لاغتصاب الدير . وهو ما حدث لدير عبّاد في ميافارقين . « قيل كان العميد قوام الدين ابو علي البلخي امير ديار بكر نائماً

(١) خزانة بريتيش موزيوم Or. 1331, f^o 41^{ro}

(٢) معجم البلدان ٤ : ١٠٦

(٣) ديوانه ، خزانة القاتيكان ٤٨٣٩ ، ص ١٩٠-١٩١

(٤) ديوان المعاني لابي هلال العسكري ، بريتيش موزيوم Add. 23443, f^o 89^b

(٥) خريدة القصر للمعاد الكاتب ، باريس ٣٣٢٨ ، ص ١٢٥

(٦) شفاء القلوب في مناقب بني ايوب ، بريتيش موزيوم Or. 7311, f^o 78^b

بالقصر فسمع وقت السحر صوت ناقوس فقال ما هذا . فقليل له ان هذا دير عباد على الجبل . فلما اصبغ واجتمع الناس قال يُضرب في بلاد المسلمين وعلى رؤوسهم الناقوس ؟ فاذن نحن في القسطنطينية . فقالوا يا مولانا هذا عمل مرة مسجداً وعاد النصارى ردّوه ديراً . فامر بقلع المذبح وعمل المحراب واتخذ مسجداً وسُمي مسجد الفتح . واجتمع النصارى وخدموا بمقدار خمسين الف دينار . فلم يقبل منهم وبقي على حاله الى الآن مسجداً .^(١)

وقريب من ذلك ما جرى في ٨ رمضان سنة ٧٨٠ (٢٩ دسمبر ١٣٧٨ م) لكنيسة ابي النمرس من الجيزة بمصر . « بات احد الفقراء الزبالة بناحيتهما . فسمع لنواقيس كنيستهما صوتاً عالياً . فوقف للسلطان الاشرف شعبان فلم ينل غرضاً منه . فتوجه الى الحجاز وعاد بعد مدة طويلة ويده اوراق تتضمن انه تشفع برسول الله عند قبره في هدم كنيسة ابي النمرس . ووقف بها الى الامير الكبير برقوق الاتابك . فرسم بهدمها وعملها مسجداً . وبذل النصارى في تركها ذهباً له صورة فلم يقبل .^(٢) »

وهذه الحادثة جديدة بالتنويه في تاريخ الكنائس في الاسلام .

ولما افتتح العرب بلاد الروم البيزنطيين كان في جملة الشروط التي اشترطوها على النصارى في العهد المعطاة لهم « ان لا يُجدثوا كنيسة ولا بيعة ولا يظهرُوا ناقوساً ولا باعوثاً ولا صليباً » كما جاء في العهد الذي كتبه عياض بن غنم لاهل الرقة^(٣) . وروى القاضي ابو يوسف « ان ابا عبيدة بن الجراح اشترط على اهل الشام ان لا يضربوا نواقيسهم قبل اذان المسلمين . ولا في اوقات اذانهم .^(٤) »

وفي بعض المراسيم السلطانية، في دولة المماليك بمصر، نهى عن ضرب الناقوس بغير تقييد . كمرسوم الملك الناصر سنة ٧٠٠^(٥) (١٣٠٠/١ م) او امر بتك ضرب

(١) مجلد من تاريخ ميفارقين لابن الازرق الفارقي، بريتيش موزيوم 150^١ f° 5803 Or.

(٢) السلوك لمعرفة دول الملوك للسقريزي ، رقم ١٧٢٧ باريس ، ص ١١٥ ؛ وذيل ابن

قاضي شبة ، ١٥٩٨ ، ص ٢٥٢

(٣) فوج البلدان للبلاذري ، طبعة اروپية ، ص ١٧٢

(٤) كتاب الخراج ، ص ١٦٥

(٥) العبد لابن خلدون ٤١٦٥

الناقوس مطلقاً كرسوم الملك الصالح سنة ٧٥٤^{١)} (١٣٥٣ م) او تحريم اظهار
الناقوس كرسوم نائب المملكة الطرابلسية الى نائب حصن الاكراد سنة ٧٦٥^{٢)}
(١٣٦٣/٤ م) والمراد في الحقيقة ان يكون ضرب الناقوس ضرباً خفيفاً في جوف
الكنايس فقط، لا تحريمه على كل حال.

ومن البديهي ان يكون الناقوس مبعثاً الى الفقهاء والعلماء . لكونه من
اظهر شعائر النصرانية . واكثرها جلبة وانتشاراً . فكانوا يكرهون صوته ويكرهون
كل ما يقرب منه او يضاهيه . ولذلك قال السيوطي في كلامه على آداب الوليمة
وجواز السماع فيها «اما ما كان فيه الصنج والجلجل فينبغي ان يكون مكروهاً
لشبهه بالناقوس .»^{٣)} (كذا)

سهم اصاب ، وراميه بذى سآلم ، من بالعراق لقد ابدت مرماك !
وفي عكس ذلك كان 'مجان الشعراء والمغرمون بالصهباء وطروق الحانات
يتلذذون جداً بسماع النواقيس في الاسحار لا اعتبارهم « تأذيتها » دعوة وتنبيهاً لهم
لاغتنام شرب الصبوح وتجديد مجالس اللهو والطرب . وقد مر بنا بعض اشعارهم
في هذا المعنى . وللأمير تميم بن المعز لدين الله :

قد دعانا الى الصبا الناقوس حين حنت الى الصباح النفوس^{٤)}

وللحسين بن الضحاك :

وندمان صدق لا ترى بين جهره وبين الذي تخفي سريره فرقا
تنبيه للناقوس ، اول نقره ولم تبق لذات الكرام له علقا^{٥)}
وله ايضاً : حاجتي للصبوح نقر النواقيس ونجوى حمام
فاصبحاني ، قبل الصباح ، مداماً قهوة مرة بماء غمام^{٦)}

(١) تاريخ البدر للعيني ، بريتش موزيوم Add. 22360, f° 59^{ro}

(٢) صبح الاعشى ١٣ : ٢٢

(٣) ترهة التأمل ومرشد المتأمل لجلال الدين السيوطي ، بريتش موزيوم Or. 4640,

f° 140^{vo}

(٤) مجلد من قطب السرور في اوصاف الخمر للرقيق النديم ، بريتش موزيوم

Or. 3628 f° 216^{vo}

(٥) مجلد من قطب السرور في اوصاف الخمر للرقيق النديم ، لوندرة Or. 3628, f° 476

(٦) مجلد من قطب السرور في اوصاف الخمر للرقيق النديم ، لوندرة Or. 3628, f° 232

ولا يُعلم بالضبط في اي وقت اُتخذت الاجراس في لبنان بدلاً من النواقيس قبل ان تشمل ايضاً سائر بلاد الشام ومصر. وفي تاريخ الدويهي انهم « في سنة ١١١٢ قرعوا نواقيس النحاس عوض الخشب في لبنان. »^(١) ولكنه لم يذكر على اي سند عول لاثبات هذه الرواية وتعيين السنة. وكلاهما موضع نظر. ولعله قدّر ان دخول الاجراس في لبنان كان لا محالة بعد دخول الصليبيين طرابلس واستقرارهم في بعض انحاء الجبل. واذا صح ان الاجراس قُرعت حقيقة في عهد الصليبيين في زمن لا سبيل الى ضبطه بغير ثبت ولا برهان. فلا ريب انها لم تكن الا في الكرسي البطريكي وحده في وادي قنوبين. ولنا على ذلك شهادات السيّاح الذين زاروا الجبل وكتبوا عنه. واقدام ما وقفنا عليه منها في رحلة لاحدهم سنة ١٥٣٣-١٥٣٤ جاء فيها ان بين كل الطوائف الشرقية لم يكن غير الموارنة في لبنان منفردين باتخاذ الاجراس في الكنائس^(٢) يعني كنائس قنوبين. وكان فيها جرسان فقط شاهدهما السائح الفرنسي كارلياي دي بينون سنة ١٥٧٩ وقال انه لم يرَ غيرهما في تركية^(٣). وفي سنة ١٦٠٥ حكى زائر آخر ان الاجراس كانت ايضاً في بعض اديار اخرى. قال وهي نادرة في هذا الجبل^(٤). ونصّ الراهب اوجين روجه سنة ١٦٣٤ على ان الاجراس كانت اربعة في الكرسي البطريكي بقنوبين، ودير مار انطونيوس، ودير مار اليسع. قال واما سائر الكنائس والاديار فخالية من الاجراس وليس فيها الا خشبات معاقمة بجبال وتقرع بالعصي^(٥). ولما زار قنوبين الكاهن الانكليزي موندريل في ٩ ايار (مايو) سنة ١٦٩٧ قال ما تعريبه: « في قنوبين جرسان صغيران في الحائط لدعوة الرهبان للصلوات. وهي مزينة امتاز بها هذا المكان لا يتمتع بها غيره في الجبل وذلك لبعد الاتراك عن سماعها. »^(٦)

(١) تاريخه، المطبعة الكاثوليكية، ص ١٠٢

(٢) G. Affagart, *Relation de Terre Sainte*. Paris, 1920, p. 88

(٣) Carlier de Pinon, *Relation de voyage en Orient*. Paris, 1920, p. 294

(٤) Henri de Beauvau, *Relation Journalière du voyage du Levant*. Nancy, 1619, p. 98

(٥) F. Eugène Roger, *La Terre Sainte*, Paris, 1664, p. 491

(٦) H. Maundrell, *Voyage d'Alep à Jérusalem*. Paris, 1706, p. 242

واكبر حجة على ان الاجراس بقيت دائماً قليلة معدودة في لبنان ، وان النواقيس لم تنقطع حتى الى اواخر القرن السابع عشر ، قول الاب فرسو ، رئيس الآباء اليسوعيين في سورية ، في كتاب له ارسله الى فرنسة بتاريخ ٩ نيسان (ابريل) سنة ١٦٩٩ : « اذا بلغت الموضع الذي في نيتي القيام برسالتني فيه ففي النهار نفسه يُنادى للاجتماع بقرع الناقوس الخشب . وهو قبيح الصوت ولكنه يُسمع من بعد فرسخين في ما جاور من الجبال ».^{١)}

وكانت الحال كذلك في الديار المصرية . ولم تكن الاجراس الا في الاديرة النائية في القفار والجبال البعيدة عن العمران حيث لا يسكن المسلمون . كدير مار انطونيوس للاقباط في جبل العربة في الصعيد . وقد زاره سنة ١٦٧٣ الاب فانسلب الدومنيكي وحكى انه رأى في كنيسة القديسين بطرس وبولس فيه جرساً صغيراً يُقرع لا يذان الرهبان بالصلاوات وبعض الاشغال . قال « وهو الجرس الفرد في كل القطر المصري ».^{٢)}

ومما يجب ان ينبّه عليه هنا ان عادة ضرب النواقيس الخشب كانت شاملة ايضاً بلاد الروم شائعة في القسطنطينية قبل استيلاء اللاتين عليها . قال احد سياح الروس انطونيوس مطران نوفغورود في كتاب « الحاج » (سنة ١٢٠٠ م) :
« لا توجد اجراس في كنيسة اجيا صوفيا . ولكن هناك مضراب يُقرع باليد في السحر . ولا يقرع للقدايس ولا لصلاوات المساء . خلافاً لبقية الكنائس فان نواقيسها تُدق للقدايس وصلاوات المساء . وقد اتخذوا هذا المضراب باشارة الملاك . واما اللاتين فانهم يقرعون الاجراس ».^{٣)}
ويقال ان عادة الاجراس دخلت القسطنطينية على يد الصليبيين . وفي سنة ١٢٠٤ شادوا القبة وازالوا من ظاهرها مسحتها القدية .^{٤)}

1) F. Besson, *La Syrie et la Terre Sainte au XVII siècle*. Paris, 1862, p. 448

2) P. Vansleb, *Nouvelle Relation en forme de Journal d'un voyage fait en Egypte en 1672-1673*. Paris, 1677, p. 293-313

3) M^{me} B. de Khitrov, *Itinéraire Russes en Orient*. Genève, 1881, p. 97

4) J. Ebersolt, *Constantinople Byzantine et les voyageurs du Levant*, p. 154

الندور والاستشفاء

في الديارات

قلّ ان يكون دير في العراق ، والجزيرة ، ومصر ، والشام ، لم تُحمل اليه الندور والهبات ، لوجود بعض الصور فيه والايقونات المشهورة بالاشفية والكرامات واجتراح المعجزات او لمكان بعض الشهداء او القديسين في مزاراته ومعابده . وكان الرهبان يرتفقون بهذه الندور والقرايين للقيام بأودهم وحاجات ديارهم ، وتأدية خراجهم وضرائبهم . وربما طاف جماعة منهم في طلبها وجمعها كما كان يجري قبلاً في دير صيدنايا مثلاً .

ومن الديارات التي كان لها سمعة طائفة في كثرة هذه الهبات والصدقات دير برصوما قرب ملطية . وكان يُنادى له بطلب نذره في نواحي الشام ، والجزيرة ، وديار بكر ، وبلاد الروم . ومما يجدر بالتنبيه عليه ان بعض هذه الندور كانت تأتيه من المسلمين انفسهم ، كما لا يزال يُشاهد مثل ذلك احياناً في ديار مصر . قال ياقوت : « وفيه رهبان كثيرة يؤذون الى ملك الروم والمسلمين من نذوره عشرة آلاف دينار على ما بلغني . حدثني العفيف مرجى الواسطي التاجر قال : اجترت به قاصداً الى بلاد الروم . فلما قربت منه اخبرت بفضلته وكثرة ما يُنذر له . وان الذين يندرون له قلّ ما يخالف مطلوبهم . وان برصوما فيه احد الحواريين . فألقى الله على لساني ان قلت ان هذا القماش الذي معي مشتراه بنجمة آلاف درهم . فان بعته بسبعة آلاف درهم فلبرصوما من خالص مالي خمسون درهماً فدخلت ملطية وبعته بسبعة آلاف درهم سواء . ففجبت ولما رجعت سلمت الى رهبانه خمسين درهماً . »^(١)

وقريب منه دير السيدة في صيدنايا بجوار دمشق . ذكر العمري انه كان له مغلات واسعة وتأتيه نذور وافرة .^(٢) ولا تزال هذه المغلات والندور مطمح اصناع الرؤساء والوكلاء :

(١) معجم البلدان ٢ : ٦٤٦-٦٤٧

(٢) مسالك الابصار ، ص ٢٥٦

لحم اطاف به سباع جوع ما لا يُذاد فانه يُنقسم

ومنها دير مار توما على جبل عالٍ في ضاحية ميفارقين « تُنذر له النذور
وتُحمل اليه من كل موضع ». ^{١)} ودير كفتون ببلاد طرابلس وكان له « صيت
جائل . وسعة مذكورة . والنصارى تقصده وتحمل اليه النذرة . » ^{٢)} والديارات
السبعة في الوجه البحري بمصر . كان « سكانها في غاية من قشف العيش وشطف
القوت . ويحمل النصارى اليهم جلائل النذور والقرايين . » ^{٣)}

ومن الديارات المشهورة بالاستشفاء :

- ١ دير الحبّ في شرقي الموصل بينها وبين إربل . « يقصده الناس لاجل
الصرع فيبرأ منه بذلك كثير . » ^{٤)}
- ٢ الدير الاعلى بالموصل . « وتحت الدير عين كبيرة تصبّ الى دجلة . ولها
وقت من السنة يقصدها الناس فيستحمون منها . ويذكرون انها تبرىء من الجرب
والحكة . وتنفع المقعدين والزمنى . » ^{٥)}
- ٣ دير هزقل بالشام يُستشفى به من الجنون . قال دعبل حين هجا ابا عبّاد
كاتب المأمون :

فكأنه من دير هزقل مُنلت خنق بحر سلاسل الاقيساد

ويقال له ايضاً دير حزقيال . ولا ريب ان هزقل تحريف له وربما حُبس به
بعض العشاق على تقدير ان العشق ضرب من الجنون . قال ابو الفرج الاصبهاني :
« خلدت شريح الخزاعي قال : اجتزت بدير حزقيال فبينما انا ادور به اذ بسطرين
مكتوبين على اسطوانة منه فقرأته فاذا هو :

ربّ ليلى امدت من نفس العا شق طولاً ، قطعت به باتحباب
ونعم كوصل من كنت اهوى قد تبدلت بي بؤس العتاب

(١) معجم البلدان ٣ : ٦٩٧

(٢) مسالك الابصار ، ص ٢٣٥

(٣) مسالك الابصار ، ص ٢٧٤

(٤) معجم البلدان ٢ : ٦٥١

(٥) الديارات للشاذلي ، ص ٧٥ ، وفي المتن « المرقعين » وهو تصحيف

نسبوني الى الجنون ليخفوا ما يقلي من صبوة واكتئاب
ليت بي ما ادعوه من فقد عقلي فهو خير من طول هذا المذاب

وتحتته مكتوب: هويت فمُنتعت وُشردت وُئاردت . وفُرق بيني وبين الوطن .
وُحببت عن الإلف والسكن . وُحبست في هذا الدير ظلماً وعدواناً . وُصدت
في الحديد زماناً .

واني ، على ما نابني وأصابني ، لذو مرة باقى على الحدّثان
فان تُعقب الايام اظفر بجاجتي ، وان ابقى سرياً بي الرَجَّوان
فكم مِيت مثلي بغيظ وحسرة صبور بما تأتني به المَلَّوان
هو الحب اتني كل خلق يحوره قديماً ، ويفنى بهدي الثقلان

قال فدعوت برقعة وكتبت ذلك اجمع . وسألت عن صاحب القضية . فقالوا
رجل هوي ابنة عمه . فحبسه عمه في هذا الدير . وعزم على حمله الى السلطان خوفاً
ان تفتضح ابنة عمه . فمات عمه . فورثه هو وابنته . فجاء اهله واخرجوا الفتى من
الدير وزوجوه ابنة عمه .^(١)

ولمجانين دير حزقيال زكات واخبار وردت في كتب الادب والديارات .
٤ دير مياس في ضواحي حمص . قيل كان فيه عظام بعض الشهداء . تزار
طلباً للعافية . « وكان البُطّين الشاعر قد مرض . فجاؤوا به اليه يستشفي فيه .
فقيل ان أهله غفلوا عنه فبال قدام قبر الشاهد^(٢) . واتفق ان مات عقيب ذلك .
فشاع بين اهل حمص ان الشاهد قتله . وقصدوا الدير ليهدموه وقالوا نصراني
يقتل مسلماً ؟ لا نرضى او تسلموا لنا عظام الشاهد حتى نحرقها . فرشا النصارى
امير حمص حتى دفع عنهم العامة .^(٣) »

٥ دير يونس في الجانب الشرقي من الموصل وتحتته عين تعرف بعين يونس .
كان الناس يقصدونها للاغتسال منها والاستشفاء . ولذلك قال فيها ابو شاس :
يا دير يونس ، جادت صوبك الدِّمُ حتى تُرى ناضراً بالنور تبسم
لم يشف في ناجر ماء على ظمأ كما شفى حرّ قلبي ماؤك الشَّبم

(١) . معجم البلدان ٢ : ٦٥٤-٦٥٥

(٢) الشاهد هنا يعني الشهيد

(٣) . معجم البلدان ٢ : ٧٠٢

- ولم يهلك محزون على سقم. إلا تحلل عنه ذلك السقم (١)
- ٦ دير الكلب بنواحي الموصل. فمن عضه الكلب الكلب وبودر بالحمل اليه وعالجه رهبانه برى. ومن مضت له اربعون يوماً من العضة لم ينجع فيه علاج. وفيه يقول السفاح الشاعر:
- سقى ورعى الله دير الكلب ومن فيه من راهب ذي ادب (٢)
- ٧ دير القيّارة على اربع فراسخ من الموصل. وتحت عين قير. وهي عين تفور بماء حار ويخرج منه القير. ومن كانت به علة أعيت الاطباء يقصده ويقيم به خمسة ايام مستنقماً في العين المذكورة. فيبدأ من النقرس والتشنج والاورام الجلدية والرياح الغليظة والجراحات (٣)
- ٨ دير باطا بين الموصل وتكريت. فيه بئر تنفع من البهق (٤)
- ٩ دير ابا^٥ هور بسرياقوس من اعمال مصر. كان يستشفى فيه من داء الخنازير بعلاج للرهبان ورماد يذرونه على موضع الوجع (٦)

- (١) الديارات للشابثي ، ص ٧٨-٧٩
- (٢) الديارات للشابثي ، ص ١٣٢ ؛ ومعجم البلدان ٢ : ٦٩ ؛ ومسالك الابصار ، ص ٢٥٤-٢٥٥
- (٣) الديارات للشابثي ، ص ١٣٢ ؛ ومسالك الابصار ، ص ٢٠١ ؛ والاغانى ١٨ : ٢٠
- (٤) معجم البلدان ٢ : ٦٤٦
- (٥) ابا مقطعة من كلمة أمبا بالقطبية او الحبسية بمعنى الاب. واكثر ما تكتب «ابا» بالنون لوقوع الميم ساكنة قبل الباء. وقد تداولتها السنة العامة ولا سيما بصر وتصرف بها بعض الكتاب والمؤرخين تصرفهم بلفظة الاب احد الائمة الخمسة لاشتباه الحرفين لفظاً ومعنى. فقالوا كنيسة بو سرجة . وكنيسة بو بنجوم . ودير بو ساويرس . ودير بو شنودة . ودير ابي يشاي . ودير ابي مقار الكبير . ودير ابي يوسف وهلم جرّاً من نظائر اسماء الكنائس والاديار الواردة في خطط المقرئزي ومعجم البلدان لياقوت . وقد اخترنا اثبات لفظ الف ابا دائماً جرياً مع الاصل ورفعاً لكل التباس
- (٦) الديارات للشابثي ، ص ١٣٢-١٣٣ ؛ ومسالك الابصار ، ص ٢٦٠

لباس الرهبان والراهبات

اجمع الشعراء على وصف لباس الرهبان والراهبات بالسواد الحالك . ولم تقف على اشارة واحدة الى انهم تدرعوا احياناً الصوف الابيض . ولذلك صحّ للسري الرفاء تشبيه الليل بالراهب حيث قال من ابیات :

انظر الى الليل كيف تصدعه راية صبح بيضنة العذب

كراهب حنّ للهوى طرباً فشق جلبابه من الطرب (١)

ونظيره لامية بن عبد الصلت المعري :

والليل في شملة ظلماته كأنه الراهب في البرنس (٢)

وللحسين بن الضحّاك في فتي من الرهبان كان يدير حانة عمر نصر بسامراً :

جترّ كالنصن في سلب مسودة كأن دارسها جسم من القار (٣)

ومثله لابن خطيب دارياً في رهبان دير مار الياس :

مع فتية شبه بدور الدجى اذا بدّوا في اسود الملبس

رهبان دير طيب اخلاقهم اصفى من الراح مستأنس (٤)

ولعبدالله بن المعتز في دير عبدون من ابیات مشهورة :

يا طامساً نهتني للصبح به في ظلمة الليل والعصفور لم يعطر

اصوات رهبان دير في صلاتهم سود المدارع ، نغّارين في السحر (٥)

وكان تحت هذه السلب والمدارع السود ، المسوح في الغالب من الشعر

الاسود . وقد اشار اليها الى ما فوقها من فاحم الشيايب ابن عاصم المصري في

ابيات له في دير القصير بظاهر مصر :

وكان الرهبان في الشعر الاسود سود الغربان في الاوكار (٦)

(١) بقيمة الدهر للشعالي ، طبعة مصر ، ١٢١ : ٢

(٢) معجم البلدان ٦٩٩ : ٢

(٣) معجم البلدان ٧٢٥ : ٣

(٤) المنهل الصافي لابن تغري بردي ، الخزائن السجورية ، ٦١٧ : ٦١٨

(٥) ديوانه ؛ خزائن باريس ٣٠٨٧ ، ص ١٠٥

(٦) معجم البلدان ٦٨٦ : ٢

ولايي نواس يصف راهباً ساقياً في دير الأكيراح :

يسقيكها مدمج الحصرين ذو كَيْفٍ اخو مدارع صوف فوق أمساح (١)

ومن هذا البيت يستدل على ان المسح كان شعار كل راهب بين شيخ وفتي . ولذلك قال السري الرفاء في غلام من دير يوسف في الموصل :

ومفنف لو كنت املك امره بدلت سُحق مسوحيه بقراطق (٢)

وكان للراهبات مسوحن ايضاً . وقد تقدم بيتان لحظظة البرمكي وصف فيهما عذارى دير العث فقال في الثاني منهما :

لابسات من المسوح ثياباً جعل الله تحتها اغصانا

فالبرانس اذن والمدارع والمسوح هي كل ما نعلمه اليوم من ملابس سكان الاديار قديماً . وكانوا يشدون فوقها الزنار، وهو اهم سِمَات اهل الذمة في الاسلام . وقد نعت ابن المعتز رهبان دير عبدون بقوله « مزنرين على الاوساط » . وكان اذا اضطر احدهم الى انتحال الاسلام يبادر قبل كل شيء الى قطع زناره . وهو ما فعله ابو العتاهية تقليداً حين اراد تقبيل يدي عتبة التي تغزل بها في شعره ومثل لديها في زي راهب اختار الاسلام على يدها .^(٣)

وقد نقبنا عبثاً في كتب الديارات عن اشارة الى ما كان يتقنع به الرهبان والراهبات مع البرانس ، فلم نجد الا ذكر قلانس رهبان دير المصلبة بظاهر القدس في شعر لايي علي حسن الغزي جمع فيه المسح والزنار والقلنسوة فقال :

ومزنرين ، اذا تلوا انجيلهم وتعطفوا ، فحائم وغصون
تزعوا القلانس والمسوح فزحزحت منهن عن غرر الشحوس دجون (٤)

(١) ديوانه ، خزانة الشاتيكان ٤٥٦ ص ، ١٠٠

(٢) ديوانه ، خزانة باريس ٣٠٩٨ ص ، ١٤٧

(٣) تاريخ بغداد للمخطيب ٦ : ٢٥٤-٢٥٥

(٤) مسالك الابصار ، ص ٢٤٠

التاج او اكليل الشعر

كان اتخاذ التاج او اكليل الشعر في الرؤوس (la tonsure) معروفاً بين الرهبان في الجاهلية . وفي حديث ابي بكر حين بعث الجند الى الشام انه قال في وصيته لهم « ستجدون اقواماً محوَّقة رؤوسهم » ذكر ابن الاثير في تفسيره ان الحوق الكنس . قال : « اراد انهم حلقوا وسط رؤوسهم فشبهه ازالة الشعر منه بالكنس . ويجوز ان يكون من الحوق . وهو الإطار المحيط بالشيء . والمستدير حوله »^(١) ولا حاجة الى التنبيه ان التفسير الثاني هو الاقرب والارجح . ولا يبعد ان يكون الرهبان الشرقيون قد سبقوا اخوانهم في الغرب الى اتخاذ التاج او اكليل الشعر . وقد ورد ذكره في بيت لابن المعتز وصف به رهبان دير عبدون بقوله :

مزترين على الاوساط ، قد جعلوا على الرؤوس اكليلاً من الشعر (٢)

وللسري الرفاء يذكر رهبان دير يوسف في الموصل :

من كل اهيف تاجه من شعره فكأنما هو شارق في غسق (٣)

والى مثل هذه العادة اشار ابو نواس يصف رهبان دير حنة :

تلقى بهم كل محفور مفارقه من الدهان عليه سُحق اسباح (٤)

ولم تكن هذه العادة مختصة بالرهبان الكهنة فقط ، بل كان الشامسة انفسهم يتخذونها ايضاً ، عندما ينقطعون لخدمة الكنائس . ولذلك عرّف ابن سيده الشامس بأنه « من رؤوس النصارى يحلق وسط رأسه ويأزم البيعة »^(٥) . والى مثل هؤلاء الرهبان والشامسة المتوجين اشار مُدرك الشيباني حين استخلف

(١) النهاية ١ : ٢٧١-٢٧٢

(٢) ديوانه ، خزانة باريس ٣٠٨٧ ، ص ١٠٥

(٣) ديوانه ، خزانة باريس ٣٠٩٨ ، ص ١٤٧

(٤) ديوانه ، خزانة باريس ٢٨٢٩ ، ص ١٦١

(٥) المختصر ١٣ : ١٠٠

عمرو بن يوحنا النسطوري في جملة الاقسام النصرانية التي سردها في قصيدته المشهورة فقال:

بحق قوم حلقوا الرؤوسا وعالجوا طول الحياة البوسا
وقرعوا في البيعة الناقوسا مشعائين ، يعبدون عيسى (١)

ومن اغرب ما جاء في الاساطير القديمة في تفسير هذه العادة ما رواه وهب ابن منبه في كلامه على حنايا الرسول حين شفى عيني بولس بدمشق . قال :
« كان بولس قد اخذ ابن اخيه وكان قد آمن بالمسيح ، فحلق وسط رأسه
ونادى عليه ورجمه حتى مات . فمن ثم اخذ النصارى حلق وسط رؤوسهم للتأسي
بذلك فيما كان عوقب به . وانه كالتواضع لا كالعيب لمن آمن بالمسيح عليه
السلام . » (٢)

وكانت هذه العادة في اوائل القرن السادس عشر مشبعة عند الارمن كما
يؤخذ من شهادة سائح فرنسي سنة ١٥٣٧ مرّاً بالقدس وقال في جملة كلامه على
فرق النصارى فيها :

« كهنة الارمن يتزوجون كسائر كهنة الفرق الاخرى . . . وفي شعور
رؤوسهم اكاليل مدورة عريضة . ومع ذلك لا يقصّون اطراف رءوسهم ولا
لحاهم . » (٣)

وقد اهل اليوم رهبان الشرق هذه العادة في جملة ما اهملوه من رسوم
الرهبانية قديماً .

(١) ارشاد الاريب لياقوت ١٥٦: ٧

(٢) تهذيب ابن عساكر ١٢: ٥ - ١٣

(٣) G. Affagart, *Relation de Terre Sainte*. Paris 1902, p. 86

وصف الرهبان

بالعبادة ، والتقوى ، والعلم ، والحكمة

من وقف على ما تقدم من الفصول والافصاف يوشك ان يعتقد ان الديارات
اصبحت في الاسلام كما قال دعبل بن علي :

مدارس آيات خلت من تلاوة ، ومازل وحيي مقفر العرصات (١)

واذا اعتبر القارى ما كان يجري في حاناتها بين الخلقاء والمتطربين من
« الامور والاعاجيب » يدرك مغزى قول كشاجم فيها :

منازل كانت لي جهن ما رب وكن مواخير ومنتهاتي (٢)

ولكن هذه التهمة الشائنة التي ألصقها بخلوات الرهبان والنسك بعض
الاضيايف والشعراء ، المتطرحين في دورها وافنيتها ، هي اوهى من ان تتناول
كل الاديار والصوامع . وفيها القوامون الصوامون « النعّارون في السحر » ،
كما تقدم من لفظ ابن المعتز . وقد انتصر غير واحد من شعراء الاسلام لهؤلاء .
القسيسين والرهبان الذين اثنى عليهم القرآن . ووصفهم بالتقشف والزهد والانقطاع
للصلاة والعبادة . واطرأوا عليهم وآدابهم وفلسفتهم وحفظهم للنحو والشعر والطب
والالخان . مع خفة ابدان وارواح . واخلق اصفى من الراح . وهو ما عدده الخالدي
في ابيات مدح بها رهبان دير مرّان بدمشق ، وهو من اديار الملكيتين ، قال :

محاسن الدير تسبيحي ومصباحي	وخمره في الدجى صبحي ومصباحي
اقت فيه الى ان صار هيكله	يقي ، ومفتاحه للحسن مفتاحي
منادماً في قسلايه رهابنة	راحت خلايقهم اصفى من الراح
قد عدلوا ثقل اديان ومعرفة	فيهم بنقصة ابدان وارواح
ووشحوا غرر الآداب فلسفة	وحكمة بعلوم ذات ايضاح
في طب بقراط لحن الموصلي ، وفي	نحو المبرد اشعار الطبرماح (٣)

ولاي نواس مدح رهبان دير حنة ، ويصف عبادتهم ونخافة اجسامهم من

(١) ارشاد الاريب ٤ : ١٩٤

(٢) معجم البادان ٣ : ٦٨٦

(٣) بتيحة الدهر ، طبعة دمشق ، ١ : ٥١٢-٥١٣

القنوت والسهر وشطف العيش حتى صاروا كالاشباح:

يا دير حنة من ذات الأكيراح من يصحُ عنك فاني لست بالصاحي
رأيت فيك ظباء لا قرون لها يلعبن منا بالبواب وارواح
دع التشاغل بالذات ، يا صاح ، من العكوف على الريحان والراح
واعدل الى فتية ذابت نفوسهم من العبادة نُخف الجسم ، أطلّاح
لم يبقَ منهم لرائيهم اذا حصلوا حذار ما تُخوّفوه ، غير اشباح
تلقى بهم كل محفوّ مفارقة من الدهان عليه سُحق امساح
لا يدلفون الى ماء بآنية الا اغترافاً من الغدران بالراح (١)

ثم عاد في ابيات اخرى في مثل وزنها وقافيتها و اشار ثانية الى هزالهم ودقة اشباحهم من اطالة الصلاة وترجيع الزبور ودراسة الانجيل في الاستحار والعشي ، وقال :

دع البساتين من آس وتفايح واعدل ، هُديت ، الى دير الأكيراح
اعدل الى نفر دقت شخوصهم من العبادة الا نضو اشباح
يكررون نوافيساً مرجمة على الزبور يامساء وإصبحاح
تبعد بسمعك عن صوت تكرهه فلست تسمع فيه صوت فلاح
الا الدراسة للانجيل عن كُتب ذكر المسيح بإبلاغ وإفصاح (٢)

ومن كانت هذه صفته من الضعف والزهد ، والعكوف على السجود والعبادة ، والرغبة عن الدنيا وغرورها ، والانقطاع الى امور الآخرة « حذار ما تخوفه منها » ، كان اجل واعقل من ان ينقاد الى ملابسة الشهوات والادناس ويتعرض لتهمة ليلة الماشوش التي اراد بعض السفهاء والاعداء إلصاقها بهم زوراً وافتئاتاً ، كما سنبيّنه في الفصل الآتي .

(١) ديوانه ، خزانة باريس ٤٨٢٩ ، ص ١٩٠-١٩١

(٢) ديوانه ، خزانة الفاتيكان ٤٥٦ ، ص ١٠٠

ليلة الماشوش

الماشوش — وجاءت في الشعر بغير الف اي مشوش — لفظة دخيلة عراقية .
زعم حمزة الاصفهاني ، في تعليقه على بيت لابي نواس ، انها «سريانية معربة عن
مشوشى . ومعناها الاجتماع»^(١) ولم يذكر عن نقل هذا التفسير . وليس في معاجم
اللغة الارامية ما يؤيده . وارتأت مجلة «لغة العرب» البغدادية انها تحريف الحاشوش
بالحاء . ويراد بها جمعة الصلבות او جمعة الآلام عند النصارى^(٢) . وشتان بين مدلول
كل من اللفظتين في العرف والاصطلاح . فيبعد جداً تفريع الاولى من الثانية .
وعندها ، ان القرامطة فيما ذهب اليه بعض الكتبة ، هم اول من عرفوا بهذه البدعة .
واشارت الى نشأتهم سنة ٢٦٤ (٨/٨٧٧ م) ، فتكون ليلة الماشوش قد اُضيفت
اليهم قبل إلصاقها برهبان دير الحوات بزها . ١٢٦ سنة هجرية اي في زمان
الشابشتي مؤلف كتاب الديارات المتوفى سنة ٣٩٠ (١٠٠٠ م)

والصحيح ان هذه التهمة القبيحة التي تحامل بها بعض خصوم النصرانية على
رهبان الاديار كانت شائعة معروفة في بغداد منذ اوائل الخلافة العباسية فهي
قد تقدمت نشأة القرامطة . وقد نص عليها ابو نواس في بيت له في بهروز قال
فيه :

نقي في الولادة عن مشوش يرتخصه النصارى للفسوس

قال ابو عبدالله حمزة بن الحسن الاصفهاني في شرحه هذا البيت :

«يزعمون ان للنصارى ليلة يجتمع فيها العزّاب من القسّان والرهبان «لاستباحة»
الابكار . واهل العراق يسمونها ليلة الماشوش . والفرس يسمونها «شب اكلمهرزان»
(شب كُلمِذاران اي ليلة العذارى) . والنصارى لا تُعرف بذلك» .^(١)

وهذا القول وحده كافٍ لدحض كل تهمة وفرية وتبرئة الرهبان من هذه
المخزية الفظيعة . وهو شاهد صريح باثبات ورودها الى العراق في جملة ما اتى به
الفرس من العادات والاخلاق والمساوى التي ادخلوها في الحضارة العباسية .

(١) ديوان ابي نواس ، خزائن باريس ٢٨٣١ ، ٢ : ٧٩

(٢) مجلة لغة العرب : الجزء الخامس من السنة الثانية ١٩٣٠ ، ص ٢٨٦

ولم ينفرد حمزة الاصفهاني وحده بالدفاع عن النصارى ونضح هذه المعرفة عنهم ، بل اربى عليه احد مؤلفي الشيعة انفسهم في الانتصار للقسآن والرهبان والثناء على سيرتهم وصيانتهم . فقال ، ولا تخفى مكانة قوله في العدل والانصاف : « واما الماشوش فهو من تخريجات السفهاء عليهم انها ليلة يجتمع فيها رجالهم ونساؤهم لطلب عيسى عليه السلام . ثم يتهارجون كيف اتفق في الظلام . ونعوذ بالله في التحريض على موال او مُعاد . وخاصة فرقة النصارى . فسيرتهم — على فساد اعتقادهم — هي بلوغ النهاية في الصيانة والامانة والشفقة على الكافة . »^(١) ولا نعلم قولاً للشيعة اجمل في الثناء على آداب النصرانية وفضائلها .

وفي اتفاق اهل السنة والشيعة على اداء مثل هذه الشهادة غناء وكفاء لقطع قول كل عدا ، ومراء ، ورحض كل ريبة ووصمة عن سكان الديارات .

ولم ينته اليينا من كل روايات مؤلفي كتب الديارات عن الماشوش الا ما حكاه منها الشابشتي فقط . فلا ندري ما نقله منها في هذا المعنى هشام الكلبي ، وابو الفرج الاصبهاني ، والحالديان ، والسري الرفاء ، والسميساطي . وقد اكتفى ياقوت بناسخ ما عند الشابشتي . ولا بأس بايراد بالحرف ليكون هذا الفصل جامعاً لكل ما قيل في ليلة الماشوش . قال الشابشتي :

« دير الخوات بعكبرا . وهو دير كبير عامر يسكنه نساء مترهبات متبيلات فيه وعيده الاحد الاول من الصوم يجتمع اليه كل من يقرب منه من النصارى والمسلمين . فيعيد هوّلاً ، ويتنزه هوّلاً . وفي هذا العيد ليلة الماشوش . وهي ليلة تختلط فيها النساء بالرجال فلا يرد واحد يده عن شيء . ولا يرد احد احداً عن شيء . . »^(٢)

وانت ترى من عبارة هذا النص ان الشابشتي لم يُشر اقل اشارة الى ان مثل هذا الاجتماع على الفساد كان يكون في دير الخوات نفسه . ولعل هذه المفسدة كانت مروية عن المتزهين في حانات الدير ، وبينهم السكرى والفُساق من المتخلفين باخلاق الفرس في ليلة شب كما عذاران .

(١) دستور المنجمين ، خزانة باريس ٥٩٦٨ ، ٢٠ ،

(٢) كتاب الديارات ، ص ٢٨

وجاء بعد الشاشتي الامام البيروني فكتب ما يأتي في ليلة الماشوش في القول على اعياد النصارى النسطورية :

« هي ليلة جمعة زعم الذاكرون لها انهم يطلبون فيها المسيح . وقد اختلفوا فيها . فبعضهم قال انها ليلة الجمعة التاسعة عشرة من صوم ايليا^(١) . وبعضهم قال انها الجمعة التي صلب فيها المسيح وهي الصلبوت . وبعضهم قال انها جمعة الشهداء وهي بعد الصلبوت باسبوع . والترجيح للقول الاول بين الثلاثة الاقوال^(٢) . »
وليس في هذا القول ايضاً كما ترى اقل إلماع الى اختلاط الرجال بالنساء في الديارات . فمن اين سرت الى الرهبان والقسوس مثل هذه التهمة الجائرة . لا ريب انها كما قال صاحب دستور المنجمين « من تحريجات السفهاء . »

ومما يشهد بان مفسدة الماشوش هي من اصل فارسي دان بها ارباب البدع والبطالة والخوارج عن السنة ان القرامطة ، والباطنية ، والاسماعيلية ، والبابكية ، والمازارية ، واشباههم من الفرق التي كثر فيها العنصر العجمي ، كانوا من انصار هذه الفاحشة . قال المقرئزي :

« لما استقام الامر لقرمط امر الدعاة ان يجمعوا النساء ليلة . معروفية . ويختلطن بالرجال و « يتقاربن » ولا يتنافرن . فان ذلك من صحة الود والألفة بينهم . »^(٣)
وقال ابن الجوزي :

« بقي من البابكية جماعة يقال انهم يجتمعون كل سنة ليلة هم ونساؤهم . ثم يُطفنون المصابيح وينتهبون النساء . فن وقعت في يده امرأة فهي له حلال . ويقولون هذا الاصطياد مباح . اعنيهم الله تعالى . »^(٤)

وقال عبد القادر البغدادي في كلامه على المازارية :

« لهم ليلة يجتمعون فيها على الخمر والزمر . رجالهم ونساؤهم . فاذا طُفنت

(١) صوم ايليا اوله يوم الاثنين بعد احد وعشرين اسبوعاً من الفطر الكبير . وايامه ثمانية واربعون يوماً . وفطره يوم الاحد . (الآثار الباقية ، ص ٢١١)

(٢) الآثار الباقية ، ص ٢١١ .

(٣) اتماظ الخفاء ، ص ١٥

(٤) الثاني من عيون التواريخ المكتبي ، باريس ٧٣٥ ، ص ١٢٠

السُّرُج « استباح » الرجال النساء .^(١)

ولابن العديم في اخبار سنة اثنتين وسبعين وخمسمائة (١١٧٦/٧) :
 « في هذه السنة اظهر اهل جبل السُّمَّاق الفسق والفجور . وتسموا بالصُّفاة .
 واختلط النساء والرجال في مجالس الشراب . لا يمتنع احدهم من اخته وابنته .
 ولبس النساء ثياب الرجال . واعلن بعضهم بان سنناً (مقدم الاسماعيليه) رُبَّه .^(٢)
 وكانت ليلة الماشوش معروفة ايضاً بين المسلمين في ديار المغرب والاندلس .
 والفقيه عمر صاحب الازجال ، اديب الاندلس ، قصيدة وطّاً لها بنثر وجعل
 الجميع مقامة ساسانية سماها « تسريح النصال الى مقاتل الفصال » اولها :
 تمالَ نَجْدَها طريفة ساسان نقصَ عليها ما توالى الجديدان

ومنها :

اتذكر في سفح العقاب مبيتكم ثمانين شخصاً من اناث وذكران . . .
 واطفأتُ قنديل المكان تعمداً واومأتُ فانقضوا كالثال عفبان
 وناديت في القوم « الوثوب » فاسرعوا فربق النسوان وقوم لذكران^(٣)

ويظهر ان ليلة الماشوش آثاراً باقية في العراق وسورية ولبنان بين الفرق
 النصيرية ، واليزيدية ، والشبك ، والكاكائية ، والقلم حاجية ، وغيرهم من
 ارباب البدع . وانها تسمى اليوم عندهم « ليلة الكثشة » .^(٤)
 ومن هذه الشواهد كلها يتضح باجلى بيان ان ليلة الماشوش كانت مخزية
 فارسية مختصة بالخوارج والفرق المبتدعة في الاسلام . وان الرهبان والقسوس
 والنصارى في الديارات كانوا براء منها متزهدين عنها باقرار اهل السنة والشيعة
 انفسهم . فما احق المسيحي اليوم اذا أنشد بيت ابي نواس المتقدم الذكر ، او عُزِرَ
 بهذه التهمة العباسية ان يقول : « رمتني بدائها وانسلت » .

(١) الفرق بين الفرق ، ص ١٦٢

(٢) زبدة الحلب في تاريخ حلب ، ص ١٩٢

(٣) نفح الطيب للحقوقي ٢٣ : ٢٣

(٤) مجلة لغة العرب ج ٦ ، سنة ١٩٢٧ ، ص ٢٦٨ ؛ وج ٥ سنة ١٩٣٠ ، ص ٢٧٠-٢٧٢

ومجلة العرفان المجلد ٢٣ ، ج ٢ ، ص ٢١٤

خراج الاديار وجزية الرهبان

كان الخراج يُجبي من الديارات وملحقاتها ومزارعها ، كما يجبي من سائر الاملاك والضياع . وربما بلغت الجبائية احياناً مبلغاً فاحشاً . «حُكي ان رهبان دير سعيد بالجانب الغربي من الموصل أُلزموا في وقت جبائية . فقاموا بثلاثمائة الف درهم .»^(١) وربما خُفف عنهم الخراج في احوال خاصة . كما خفف فيما قيل عن رهبان دير صليبا بدمشق حين اعطوا خالد بن الوليد سلفاً صعد عليه بعض جنده لفتح الباب الشرقي^(٢) . وكما فعل هرون الرشيد يوم زار دير القائم الاقصى وشرب فيه من يد ديرانية عليها المسوح من حسان الراهبات وغناه اسحاق الموصللي . فامر ان لا يؤخذ من مزارع الدير خراج واقطعهم اياه . وجعل عليه من الخراج عشرة دراهم تؤدى في بغداد.^(٣)

وفي تقاليد بعض الاديار ، وحكايات النساطرة خصوصاً ، اخبار وعهود منحولة للرسول او لعمر بن الخطاب في الوصاة بالرهبان والإعفاء من الخراج ، اذا ما المؤرخ البصير يتبين له اليوم من الفاظها وشهودها انها موضوعة مختلفة طمعاً من رهبان في التخلص من التكاليف والجزى . وقل من تلقه لها من مؤرخي الاسلام . ولعلمهم اعانوا احياناً على رواجها وتصحيحها . ومن ذلك ما حكاه الخالدي في كتاب الديارات من دخول عمر بن الخطاب انطاكية قبل الخلافة . وقتله احد بطارقتها وخروجه منها ، وعدوله في طريقه الى احد الاديار قد يكون دير رمانين في ضواحي حلب . وتنبؤ الراهب له انه بعد ظهور محمد يُخرج الروم من الشام ويملك الارض . ولذلك سأل الراهب بان يكتب له بعد ان اضافته كتاباً في قطعة من آدم في ترك خراج الدير والوصاة به^(٤) .

واما جزية الرؤوس والجماجم ، كما كان يقال ، فكانت لا تؤخذ من

(١) مسالك الابصار ، ص ٢٩٠

(٢) فتوح البلدان للبلاذري ، طبعة اروبة ، ص ١٢٩

(٣) مسالك الابصار ، ص ٢٧٠

(٤) الخزانة الشرقية ٢ : ١٠

المتربين اذا كانوا مساكين يُتصدق عليهم . واما اذا كانوا ذوي يسار فكانت تُستأدى منهم كسائر الناس^(١) . ومع ذلك فقد أخذت غير مرة من الرهبان الفقراء . ففي خلافة عبد الملك بن مروان كان اخوه عبد العزيز بن مروان امير مصر (٦٨٤-٧٠٥ م) فامر باحصاء الرهبان فأحصوا . واخذت منهم الجزية عن كل راهب دينار . وهي اول جزية أخذت من الرهبان^(٢) .

وفي سنة ١٠٤ للهجرة (٧٢٢ م) كان متولي الخراج بصراً أسامة بن زيد التنوخي « فاشتد على النصارى وواقع بهم واخذ اموالهم . ووسم ايدي الرهبان بحلقة حديد فيها اسم الراهب واسم دير وتاريخه . فكل من وجده بغير وسم قطع يده وكتب الى الاعمال بان من وُجد من النصارى ليس معه منشور ان يؤخذ منه عشرة دنائير . ثم كبس الديارات وقبض على عدة من الرهبان بغير وسم . فضرب اعناق بعضهم وضرب باقيهم حتى ماتوا من الضرب . ثم هُدمت الكنائس . وكسرت الصلبان . ومُحيت التماثيل وكسرت الاصنام باجمعها وكانت كثيرة في سنة اربع ومائة والخليفة يومئذ يزيد بن عبد الملك . فلما قام هشام بن عبد الملك في الخلافة كتب الى مصر ان يُجرى النصارى على عوائدهم وما بأيديهم من العهد . فقدم حنظلة بن صفوان اميراً على مصر في ولايته الثانية فتشدد على النصارى وزاد في الخراج . واحصى الناس والبهاشم . وجعل على كل نصراني وسماً صورة اسد . وتبعضهم فن وجده بغير وسم قطع يده . »^(٣)

وفي اماره احمد بن طولون كان احمد بن المدير صاحب خراج مصر . فتتبع الرهبان واستقضاهم الجزية . وكان ابن طولون كثيراً ما يغشى دير القصير للملكيين ويأنس براهب منهم . فشكا اليه امر ابن المدير وقال له انه يطالبنا بجزية رؤوسنا وقد سقطت عن امثالنا على مر السنين . فوقع الى ابن المدير بخطه . فكف عنهم واعفاهم وبلغهم فوق ما يجبون^(٤) .

(١) كتاب الخراج للقاضي ابي يوسف ، المطبعة السلفية ، مصر ، ص ١٤٦

(٢) الخطط للمقرئ طبعة بولاق ، ص ٤٩٢-٤٩٣

(٣) الخطط للمقرئ ، ص ، ٤٩٢-٤٩٣

(٤) سيرة ابن طولون للبلوي ؛ دار الكتب الاعلمية ، الظاهرية . دمشق رقم ٢٤٢ ،

وفي سنة ٣١٣ (٩٢٥ م) « قدم الوزير علي بن عيسى بن الجراح الى مصر . فكشف البلد والزم الاساقفة والرهبان وضعفاء النصارى باداء الجزية . فأدّوها . ومضى طائفة منهم الى بغداد واستغاثوا بالمقتدر بالله . فكتب الى مصر بان لا يؤخذ من الاساقفة والرهبان والضعفاء جزية . وان يُجروا على العهد الذي بأيديهم . »^(١)

وكان بعض الخلفاء العباسيين لمعرفتهم بما استقر في نفوس العمال من حب الظلم والعسف والضراوة على إرهاب اهل الذمة يشددون في اختيار اهل العفة والنزاهة منهم . ويوصونهم بالقسط في جباية الجزية وألا يأخذوها من النساء والولدان والعجزة والمرضى والفقراء والرهبان . كما جاء في العهد الذي كتبه ابو اسحاق الصابي من الخليفة الطائع لله الى فخر الدولة بن بويه في جمادى الاولى لسنة ٣٦٦ (٩٧٦ م) قال :

« وامره ان يتخير عماله في الاعشار والحراج والضياح والجهنزة والصدقات والجوالي من اهل الظلف والنزاهة . . . وان يوعزوا الى جباة حجاجم اهل الذمة ان يأخذوا منهم الجزية في المحرم من كل سنة . بحسب منازلهم في الاحوال وذات ايديهم في الاموال وعلى الطبقات المطبقة فيها . والحدود المحدودة المعهودة لها . وان لا يأخذوها من النساء ولا ممن لم يبلغ الحلم من الرجال . ولا من ذي سن عالية . ولا ذي علة بادية . ولا فقير مُعَدَم . ولا راهب متبتل . »^(٢)

وكان بعض الاقباط في دولة المماليك اذا قعدت بهم الحال عن دفع الجالية وهي الجزية المفروضة على رقاب اهل الذمة . يمتثلون للتخلص منها بلبس الصوف والانتما الى بعض الاديار . وفي ايام الملك الظاهر بيبرس البندقداري كثير امثال هؤلاء الرهبان الزور ، وعلم السلطان بجلية امرهم ، فامر باخذ الجزية من كل راهب لا يكون منقطعاً في الدير او معتزلاً في البرية . او لا تكون له شهود ثقات على صدق رهبانيته . فانتهر الجباة هذه الفرصة لإيذاء اكثر الرهبان والتسلط على الشيوخ والعجزة منهم ، ولا سيما في جهات الغربية . قال كاتب « سير

(١) الخطط للسقري ، ص ٤٩٤-٤٩٥

(٢) صبح الاعشى للقلقشندي ١٠ : ٢٧-٢٨

البطاركة الاقباط « بعد ان حكى ما اشرنا اليه في حوادث سنة ٩٩١ للشهداء
(١٢٧٤ م)

«ولما جاء السلطان عز نصره اجتمع جماعة من رهبان الديارات وجاؤا الى باب السلطان
بهدية على قدر حالهم مما يليق بالرهبان . فكتب لهم مائة وخمسين اردباً غلّة . وسمع بخبرهم
رهبان دير القُصير الملكية . فاحضروا الآخر هدية من النسبة فامر لهم بمائة اردب غلّة وبقي
الرهبان ملازمين باب السلطان مدة . وبعد ذلك خرج الامر بان يكتب لهم بان يُجروا على
عادتهم بشرط انهم لا يخفون احداً ممن تجب عليه الجزية . ولا يرهبنون احداً الا بعد تنزيله في
الديوان . ومن يستحق الرهينة يدخل فيها لطلب الله تعالى لا لاجل جزية ولا شدة لحقته .
واخذوا الكتاب المذكور ومضوا به الى الغربية . ولم يقدم شيئاً . » (١)

وظلّ الرهبان على هذا الوجه يغرمون الجالية تارة ويُعفون منها تارة اخرى
حتى في عهد الدولة العثمانية ايضاً كما يستفاد من شهادة الحجة الآتية التي وقفنا
عليها في خزانة بريتيش موزيوم في مجموع خطي رقم Add. 9965 ومعظمه
فصول دينية للبطريرك مكاريوس الزعيم الحلبي . وهي في اول صفحة منه بقلم
غير قلم الكتاب . وهذا نصها بالحرف :

« صورة حجة منع الخراج »

« سبب تحريره هو انه حضر مجلس الشرع الشريف ومجلس الحكم المنيّف بطرابلس الشام
المحمية اجلّه الله تعالى . لدى متوليّ مولانا وسيدنا الحاكم الشرعي الموقع خطه الكريم اعلاه .
دام فضله وعلاه . بعد ان حضر كل من الراهب ميخايل ولد الياس فرح المطران . والراهب
الياس الخوري ولد يونس . وادّعى على فخر الاقران علي اغا قايم مقام الدستور المكرّم المشير
المفخّم حضرة مصطفى باشا . المحافظ بطرابلس الشام ويايتها يسر الله له من الخير ما يشاء .
مقررين في دعواهم بان المدّعى عليه يطلب منعاً ومن امثالها الرهبان الفقراء الجزية (الشرعية عن
هذه السنة . وان طائفة الرهبان الخدام بكنيسة طرابلس وبالديورة الكائنة بيايتها من جملة
الفقراء النصارى الغير قادرين على الكسب . وليس لهم عادة من قديم الزمان هم ومن تقدمهم
من الرهبان باعطاء الجزية وغيرها . وانهم معافون من ذلك بموجب ما بيدهم من العهد نامه
النبوية . وسألوا من الحاكم الشرعي سؤاله عن ذلك . فسُئِلَ فاجاب بالاعتراف من انه يطالبهم
لكونهم من اهل الذمة . ومن جملة النصارى . وانه مأمور باخذ الجزية منهم بموجب ما بيده
من البراءة السلطانية . وبرزها من يده . فقرئت بسمع من المدّعين فاذا من مضمونها بان
الجزية الشرعية تؤخذ منهم على الاعلى والاطول والادنى . ما عدا الفقير الذي لا يقدر على
الاكتساب فانه ملحق بالزوّج والمفلوج والمريض . ولم يصدّق المدّعى عليه بانهم من الفقراء

الذين لا قدرة لهم على الكسب . فطلب منهم بيان ذلك بالطريق الشرعي . فاحضروا لذلك كل من الحاج حسين بن نعمان . والسيد يوسف بن السيد ابراهيم . ومحمد باسه ابن الفقيه . وموصلي اغا الشوباسي . فشهدوا بان طائفة الرهبان ليس لهم عادة من قديم الزمان باعطاء الجزية . وانهم فقراء وليس لهم كسب ولا حرفة . وانهم يعيشون بصدقات النصارى . شهادة صحيحة شرعية . مقبولة منهم شرعاً . فلما شهدوا بذلك . عرّف مولانا الحاكم الشرعي المشار اليه . المدّعى عليه بطلب الجزية بان الفقير الغير القادر على الكسب ، والزّمن ، والمريض ، والمفلوج ، ليس عليه جزية . وكذا الراهب الغير مختلط للناس كما في كتب المذهب . ومنعه من التعرض لطائفة الرهبان المرقومين بطلب الجزية تعريضاً ومنعاً شرعياً اوقعهما بالطريق الشرعي . وبالالتماس المرعي طلب المدّعون المزبورون من الحاكم الشرعي المشار اليه بان يسطر لها ولطائفة الرهبان القاطنين بطرابلس وايلاتها صكاً شرعياً تمسكاً بيدهم ونافعا لهم في المال عند الاحتياج لدى الاحتجاج . فسُطِر بالطلب في اوائل شهر شوال المبارك من شهر سنة ١١٠٣ « (١٦٩٣ م) .



فهارس الكتاب

الالفاظ المولدة المشروحة في المتن والحواشي

الصفحة

١٠٢	حاشية رقم ٤	انبا و ابا من القبطية بمعنى الاب
١٠٥		التاج او اكليل الشعر tonsure
٤٤ - ٤٥		التحية والتحايا بمعنى التحفة والهدية من الازهار والفواكه والطرائف
١٠		الدير والديور في جمع دير
١٣	حاشية رقم ٢	السكرجة vinaigrier
٦١	حاشية رقم ١	الطفشيل : نوع من المرق
١٣	حاشية رقم ٢	الطوفرية او الطيفورية : نوع من الصحف
١١		العمر بمعنى الدير
٢٨	حاشية رقم ١	الغذدونة او الخذدونة Chalcédoine
٢٢		القائم في الديارات بمعنى الصومعة
١٣	حاشية رقم ١	القبالة بمعنى الخرستان
٢٠ - ١٩		الفلاية والفلاية وجمعها قلالي وقلايا
٢٢		الكيرج والأكبراح لبيوت الرهبان
١٠٩		الماشوش

الاديوار والاعمار والقباب والقلالي والكنائس

التي تنغى بها الشعراء في خمرياتهم وأشار اليها المؤرخون في هذا الكتاب
مرتبة على حروف المعجم

- دير أبثون في قردي وهي قرية قريبة من
جبل الجودي بالجزيرة ١٩
الدير الأبيض بصعيد مصر ١٠ ، ٦٦
دير إتراعيل بجوار كفر عزى من قرى
إربل ٢٣
» الاسكون بالخيرة ١٤ ، ٥٩
» اشمونى بقطر بل ٤٣ ، ٦٣ ، ٨٨
الدير الاعلى بالموصل ٩ ، ١٦ ، ٣٠ ، ٤٤ ،
٧٤ ، ١٠٠
دير اكمن او اكمل على جبل بالقرب من
الجودي ٤٣
» مار الياس في داريا من ضواحي دمشق
١٠٣ ، ٧٥
» مار اليسع في لبنان ١٧
» مار انطونيوس في لبنان ١٧
» مار انطونيوس في جبل العربية في صعيد
مصر ٩٨
» باريشا بأرض الموصل ٥٩
» باشمرا على شاطئ دجلة بين الموصل
والخديثة ٦٥
» باطا بالسنة بين تكريت والموصل وميت
١٠٢ ، ١٤
» باعربا بين الموصل والخديثة ١٤ ، ٣٠ ،
٥٩
» باعنتل بجوسية من اعمال حمص ١٧
- دير الباعوث على شاطئ دجلة بين الموصل
والخديثة ١٨
» باقوفا (من قرى إربل) ٦٦
» برصوما قرب ملطية ٩٩
» البنات بطرابلس ٢٧
» البنات بالقاهرة بحارة الروم ٢٧
» مار توما في ضاحية ميفارقين ١٠٠
» دير مروتومان . انظر : مروتومان
» الثعالب في ضواحي بغداد ٧٣ ، ٧٤
» الجاثليق : دير قدم كان قريبا من مسكن
وأوانا ٨٤
» الجب في شرقي الموصل ١٠٠
» جرجس بالمرقة على شاطئ دجلة ٤٢ ،
٦٢
» الحريق بالخيرة ٨٦
» حنة بظاهر الكوفة ٢٢ ، ٢٣ ، ٢٧ ،
٣٧ ، ٦٨ ، ٩٤ ، ١٠٥ ، ١٠٧ ، ١٠٨
» الخوات بكبرا ٢٤ ، ١٠٩ ، ١١٠
الديارات السبعة في الوجه البحري بمصر ١٠٠
الديران بضاحية دمشق ٩٤
دير درمالس : هو دير رومانس ٤٤
» الراهبات بحارة زويلة من القاهرة ٢٧
» الرصافة رصافة هشام ١٦ ، ٢٨
» رمانين بضواحي حلب بينها وبين انطاكية
١١٢

دير رومانس في رقعة الشماسية ببغداد ٤٤
 » الروم في بغداد في الجانب الشرقي منها ٨٤
 » ريفة بصعيد مصر ٨٥
 » زرارة بين الكوفة وحمام عين ٤٢ ، ٦٣
 » الزعفران في لطف جبل نصيبين ١٤ ، ٢١ ، ٢٢ ، ٢٣ ، ٤١ ، ٥٧ ، ٧٢ ، ٧٣
 » زكسى بالرقعة ٢٩ ، ٦٨ ، ٧٨ ، ٨٠ ، ٨١ ، ٨٤ ، ٨٧
 » الزندورد بالجانب الشرقي من بغداد ٦٠ ، ٦٢
 » الساعة : هو دير صليبا
 » سابر قرب بغداد بين المزرعة والصالحية ٤٢ ، ٦٢
 » السبعة الجبال باخميم في مصر ١٤
 » مار سرجس بالمطيرة قرب سامرا ، وقيل بعانة ١٨ ، ٨٧
 » سرجيس بين الكوفة والقادسية ٤٢ ، ٦٢
 » سعيد بالجانب الغربي من الموصل ١٩ ، ٦٦ ، ١١٣
 » سمعان بظاهر انطاكية ٥٩ ، ٨٣
 » السومسي بنواحي سامرا بالجانب الغربي ٦١ ، ٢٨
 » السبدة في صيدنايا في ضاحية دمشق ٩٩
 » السبق قبلي البيت المقدس ٩
 » شعران او شهران بظاهر مصر ٨٠
 » الشياطين غربي دجلة من اعمال بلكد ٦١
 » صليبا بظاهر دمشق وباب الفراديس ٢٦ ، ٢٨ ، ٢٩ ، ٦٧ ، ٨٩ ، ١١٣
 » طمويه من قرى مصر ٨١
 » الطور او طورسينا ١٤ ، ٤٣ ، ٦٨
 دير الطير قبالة سملوط بمصر ١٤
 » عبّاد في الجبل المطلّ على ميفارقين ١٥ ، ٩٤
 » عبدون الى جانب المطيرة بسامرا ٢٩ ، ٧١ ، ١٠٢ ، ١٠٥
 الدير العتيق : دير قديم للنسطورية بناحية المدائن ٨٥
 » العذارى بين سامرا وبغداد ١٠ ، ٢٤ ، ٢٣ ، ٤٢ ، ٦٢
 » العذارى ببغداد ٢٤
 » العذارى بالحيرة ٢٤
 » العلك على شاطئ دجلة قرب الخطيرة ٢٥ ، ٨٩ ، ١٠٤
 » القام الاقصى بالرقعة ١٠ ، ٢٤ ، ٢٥ ، ٧٠ ، ٧٧ ، ١١٣
 » الفاروص بجانب اللاذقية ٥٩
 » القرقس بجوار اخميم في مصر ١٤
 » قزمان بضواحي حلب ٧٦
 » القصير في جبل شهران في ضاحية مصر ١٧ ، ٣٠ ، ٦٩ ، ٧٥ ، ٧٦ ، ٩٢ ، ١٠٢ ، ١١٤ ، ١١٦
 » قتي من نواحي النهروان قرب الصالحية ٢٠ ، ٢٢
 » قنوين بلبنان ٩٧
 » قوطا بالبردان على شاطئ دجلة ٢٢ ، ٤٢ ، ٦٢ ، ٧٦
 » القيارة بجوار الموصل ٢٢ ، ١٠٢
 » كفتون ببلاد طرابلس ٢٢
 » الكلب قرب معلثايا بنواحي الموصل ١٩ ، ٢١ ، ٢٢ ، ٥٧ ، ١٠٢
 » الاكبراح في الحيرة ٢٢ ، ٦٤ ، ١٠٤ ، ١٠٨
 » اللج في الحيرة ٦٧ ، ٦٩ ، ٧٤ ، ٧٨
 » مرمار (مار ماري) بسامرا ٢٩ ، ٧٢ ،

دير رومانس في رقعة الشماسية ببغداد ٤٤
 » الروم في بغداد في الجانب الشرقي منها ٨٤
 » ريفة بصعيد مصر ٨٥
 » زرارة بين الكوفة وحمام عين ٤٢ ، ٦٣
 » الزعفران في لطف جبل نصيبين ١٤ ، ٢١ ، ٢٢ ، ٢٣ ، ٤١ ، ٥٧ ، ٧٢ ، ٧٣
 » زكسى بالرقعة ٢٩ ، ٦٨ ، ٧٨ ، ٨٠ ، ٨١ ، ٨٤ ، ٨٧
 » الزندورد بالجانب الشرقي من بغداد ٦٠ ، ٦٢
 » الساعة : هو دير صليبا
 » سابر قرب بغداد بين المزرعة والصالحية ٤٢ ، ٦٢
 » السبعة الجبال باخميم في مصر ١٤
 » مار سرجس بالمطيرة قرب سامرا ، وقيل بعانة ١٨ ، ٨٧
 » سرجيس بين الكوفة والقادسية ٤٢ ، ٦٢
 » سعيد بالجانب الغربي من الموصل ١٩ ، ٦٦ ، ١١٣
 » سمعان بظاهر انطاكية ٥٩ ، ٨٣
 » السومسي بنواحي سامرا بالجانب الغربي ٦١ ، ٢٨
 » السبدة في صيدنايا في ضاحية دمشق ٩٩
 » السبق قبلي البيت المقدس ٩
 » شعران او شهران بظاهر مصر ٨٠
 » الشياطين غربي دجلة من اعمال بلكد ٦١
 » صليبا بظاهر دمشق وباب الفراديس ٢٦ ، ٢٨ ، ٢٩ ، ٦٧ ، ٨٩ ، ١١٣
 » طمويه من قرى مصر ٨١
 » الطور او طورسينا ١٤ ، ٤٣ ، ٦٨

٧٨ ، ٧٣

دير مار ماعوث على شاطئ الفرات ١٨ ،

٧٦ ، ٧٣

» متى شرقي الموصل ١٣

» مرّان بدمشق في سفح جبل قاسيون

١٨ ، ٢١ ، ٢٦ ، ٢٨ ، ٢٣ ، ٥٧ ،

٥٩ ، ٦٤ ، ١٠٧

» مارت مروثا في سفح جبل جوشن بجوار

حلب ١٥ ، ٢٠ ، ٢٣ ، ٥٧

» مارت مريم بالحيرة ٢٧ ، ٦٣ ، ٨٨

» محلى بساحل نهر جيحان قرب المصيصة

٤٥ ، ٨٤

» مديان على نهر كرخايا قرب بغداد ٦٠

» المصالبة بظاهر القدس ١٨ ، ٢٣ ، ٧٥ ،

١٠٤

» المعلقة بمدينة مصر ٢٧

» مغارة شقلايل تجاه منفلوط بمصر ١٤

» مار ميخايل باعلى الموصل ١١ ، ٧٣

» ميماس في ضواحي حمص ١٠١

» نجران باليمن ١٦

» النساء بدمشق ٢٧

» نوراذان ٧٨

» هزقل او حزقيال بين البصرة وعسكر

مكبرم ١٠٠ ، ١٠١

» هند الصغرى بالحيرة ١٧ ، ٢٦

» هند الكبرى بالحيرة ٢٦

» هور بسر ياقوس من اعمال مصر ١٧ ،

١٠٣

دير مريحنّا بجانب تكريت ٢٣ ، ٥٩ ،

٧١

» يوسف بالقرب من بلد مدينة فوق

الموصل ١٥ ، ١٨ ، ٢٧ ، ٢٣ ، ٤٣ ،

٧٥ ، ١٠٤ ، ١٠٥

» يونان بالانبار ١٤ ، ٣٠

» يونّا بجانب غوطة دمشق ٢٨ ، ٧٧

» يونس في الجانب الشرقي من الموصل

٦٦ ، ١٠١ ، ١٠٢

عمر احويشا باسعرّد ٢٢ ، ٤٢

عمر الزرنوق في جوار جزيرة ابن عمر ١١

عمر الزعفران بنصيبين ١١ ، ٤٢ ، ٥٨

العمر الصغير في جوار جزيرة ابن عمر ١١

عمر كسكر او واسط ١١ ، ٢٠

عمر نصر بسامرا ١١ ، ٦٣ ، ٨٨ ، ١٠٣

عمر مار يونان بالانبار ١١ ، ٢١

قبة السنيق بالحيرة ١٥

قباب الشعانين بالحيرة ١٦

قباب الشكورة بالحيرة ١٦

قبة غصين بجانب دير الحريق بالحيرة ١٥

قلاية القدس بالحيرة ١٩ ، ٣٠ ، ٤١ ، ٤٤

قلية دير مرّان بدمشق ٢١ ، ٥٩

كنيسة ابي النمرس بجيزة مصر ٩٥

كنيسة طرابلس ١١٦

كنائس قنّوين بلبنان ٩٧

الشعراء الذين استشهد بأبياتهم وقصائدهم

في هذا الكتاب

١٠٧ ، ١٠٨ ، ١٠٩	ابن ابي جبلة الدمشقي ٦٤
ابو الهندام كلاب بن حمزة ٧٨ ، ٧٩	ابن جناح ٧٦ ، ٧٧
ابرهيم بن القاسم المعروف بالريق القبرواني ٧٥ ، ٧٦	ابن الحكاك ابو الحسين بن محمود الخجندي
احمد بن ابي طاهر ٦٠	الموصلي ٦٦
احمد بن عبد ربه الاندلسي ٣٩ ، ٩١	ابن خطيب داريا ٧٥ ، ١٠٣
الاخطل ٣٧ ، ٨٤	ابن الرنبقي المصري ٩٢
اسحاق بن ابرهيم الموصلي ٢٣ ، ٢٥ ، ٢٧	ابن سيجان ، من شعراء الاغاني ٤٦
الاسود بن يعفر ٩١	ابن عيبدل ٥٢
اسماعيل بن عمار الاسدي ٦٩	ابن نباتة المصري ٦٧ ، ٧٤
اعشى باهلة ٤٦	ابو بكر الصنوبري ٤٩ ، ٦٨
اعشى قيس ١٦ ، ٤٦ ، ٥١	ابو جفنة القرشي ٢٤
امية بن عبد الصات المعري ١٠٣	ابو الحسين الجزار ٨١
البحثري ٩١	ابو الحسين محمد بن ميمون الكاتب ٦٦
بشار بن برد ٥٠	ابو دلف العجلي ٤٨
بكر بن خازجة ٨٤ ، ٨٥	ابو ذؤيب الهذلي ٢٨ ، ٥١
تاج الدين محمد بن حواري ٤٠ ، ٦٥	ابو اسحق الصابي ٤٤
تيم بن المعز لدين الله الفاطمي ٢٠ ، ٩٦	ابو شاس منير ١٠١ ، ١٠٢
جحظة البرمكي ٢٥ ، ٦٠ ، ٦٣ ، ٨٩ ، ١٠٤	ابو عبد الرحمن الهاشمي السلماني ٦٤
جرير ٢٦ ، ٩٤	ابو عبدالله محمد بن خليفة السنبلي ٦٣
جعفر بن جرار كاتب ابن طولون ٥٦	ابو العلاء المعري ٢٨ ، ٨٧
جلال الدين ابن الصفار الماردني ٧٤	ابو علي حسن الغزي ٧٥ ، ١٠٤
حسام الدين الحاجري ١٠ ، ٤١	ابو العيلاء ٦٥
الحسين بن الضحاك ١١ ، ٣٤ ، ٦٤ ، ٨٨ ، ١٠٣ ، ٩٦ ، ٨٩	ابو الفرج البيهقي ٤١ ، ٤٤ ، ٧٢
	ابو محمد الحسن بن علي بن وكيع التنيسي ٨٥
	ابو نصر البصري ١٨
	ابو نصر المنازي ٦٩
	ابو نواس الحسن بن هاني ١١ ، ٢٢ ، ٢٧ ، ٢٧ ، ٤٠ ، ٤٨ ، ٤٩ ، ٦٤ ، ٧٨ ، ٧٩ ، ٨٥ ، ٩١ ، ٩٤ ، ١٠٤ ، ١٠٥

الحالديان ابو بكر وابو عثمان ١١ ، ١٩ ،
٤٩ ، ٧٤ ، ١٠٧

دعل بن علي الخزاعي ١٠٠

ربيعة بن مقروم الضبي ٩

سبط ابن التعاويذي ٢٠ ، ٤٢ ، ٧٣ ، ٧٤

السراج الوراق ٨٠ ، ٨١

السري الرقاء ١٥ ، ١٩ ، ٧٢ ، ٧٥ ، ١٠٣ ،
١٠٤ ، ١٠٥

سعد الوراق ٨٢ ، ٨٣

السفاح الشاعر ١٠٢

شرف الدين بن المستوفي الاربلي ٤٢

الشمخ بن ضرار ٥٣

شهاب الدين التلعفري ٤٠

شهاب الدين بن العطار ٥٤

شهاب الدين العمري ٩ ، ١٠ ، ٦٦ ،
٦٧

صدر الدين بن الوكيل ٤١ ، ٤٢

العباس بن الحسن وزير المكتفي ٥٣

عبد السلام بن رغبان ديك الجن ٤١

عبد الصمد بن بابك ٤٠

عبدالله بن العباس بن الفضل بن الربيع ٧٦ ،
٨٧

عبدالله بن المعتز ٢٨ ، ٢٩ ، ٣٥ ، ٤١ ، ٤٨ ،
٥٤ ، ٧١ ، ٩٤ ، ١٠٣ ، ١٠٥

عبدالله المأمون بن الرشيد ٢٨

عبدالله النسييري العراقي ٣٥

عميد بن الابرص ٣٤

عدي بن زيد ٣٤

علي بن اسماعيل من شعراء الخريدة ٤١ ، ٩٤

علي بن محمد الاعمى الدمشقي ٤٠ - ٤١

عمر بن عبد الملك الوراق ٧١

عمرو بن كلثوم ٥٠

عون الدين بن العجمي ٢٦

الفضل بن اسماعيل بن العباس ٦٦

الفضل بن العباس بن المأمون ٧٢

الفقيه عمر اديب الاندلس ١١٢

كشاجم ١٠٧

الكندي المنهجي ٧٢ ، ٧٦

محمد بن بشار الحمذاني ٥٦

محمد بن بشير ٤٤

محمد بن عاصم المصري ١٧ ، ٨١ ، ١٠٣

محمد بن عبد الرحمن الثرواني ١٩ ، ٢٣ ،
٤١ ، ٤٤ ، ٨٦ ، ٨٨ ، ٩٣

مدرك بن علي الشيباني ٨٤ ، ١٠٥ ، ١٠٦

المرقس الاكبر ٩٠ ، ٩١

مصعب الكاتب ٧٢

المعتصمي ٧٧

المنصور بن عامر ٥٢

مهمل بن يموت بن المزرع العبدي ٦٨

موفق الدين بن ابي الحديد المدايني ٧٣

الناطقة الذيباني ٤٦

الوليد بن يزيد ٧٧

يزيد بن معاوية ٢٨

المطبوعات والمخطوطات

التي استشهد بها أو استند إليها في هذا الكتاب

المطبوعات

- الآثار الباقية لابي الريحان البيروني . طبعة ليبسيك
اتعاظ الخلفاء باخبار الائمة والخلفاء للمقريري . طبعة ليبسيك
احسن التقاسيم للبشاري المقدسي . طبعة ليدن
ارشاد الاريب لياقوت الرومي . مصر . مطبعة هندية
اساس البلاغة للرخصي . طبعة الدار
الاعلاق النفيسة لابن رسته . ليدن
الاغاني لابي الفرج الاصبهاني . طبعة بولاق
الاغاني لابي الفرج الاصبهاني . طبعة الدار
البيان والتبيين للجاحظ . المطبعة العلمية . مصر
تاج العروس من شرح جواهر الفاموس للزبيدي . المطبعة الخيرية . مصر
تاريخ ابن اياس . مصر
تاريخ ابن بطريق . المطبعة الكاثوليكية . بيروت
تاريخ بغداد للخطيب . مصر
تاريخ الدويهي . المطبعة الكاثوليكية . بيروت
تاريخ الرسل والملوك للطبري . ليدن
تاريخ مصر وولاتها لابي عمرو الكندي . المطبعة الكاثوليكية . بيروت
تهذيب ابن عساكر . دمشق
حديقة الافراح لازالة الاتراح للشرواني . مصر . بولاق
حوادث الدهور مدى الايام والشهور لابن تغري بردي . ليدن
خزانة الادب للبغدادي . مصر
الخزانة الشرقية لحبيب زيات . الجزء الثاني . المطبعة الكاثوليكية . بيروت
المخطوط للمقريري . مطبعة النيل . مصر
المخطوط للمقريري . طبعة بولاق
ديوان ابن نباتة المصري . مصر

- ديوان ابي نواس . مصر
ديوان سبط ابن التعاويذي . طبعة مرجليوث
ديوان عبيد بن الابرص طبعة ليال . بيروت
رحلة ابن بطوطة . مطبعة وادي النيل . مصر
رسالة الغفران لابي العلاء المعري . مصر ، مطبعة هندية
زهر الآداب للحصري . جهامش العقد الفريد . مصر
سنن ابي داود . مصر
سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم . مصر
شفاء الغليل للخفاجي . مصر
صبح الاعشى للقافشندي . مطبعة الدار
صحيح البخاري . طبعة بولاق
صحيح البخاري . المطبعة الحسينية . مصر
العبر لابن خلدون . طبعة بولاق
العقد الفريد لابن عبد ربه . المطبعة الازهرية . مصر
فتوح البلدان للبلاذري . ليدن
فوات الوفيات لابن شاکر الکتبي . مصر
كتاب البخله للجاحظ . ليدن
كتاب البلدان لابن الفقيه . ليدن
كتاب التاج للجاحظ . مطبعة الدار
كتاب الخراج للقاضي ابي يوسف . المطبعة السلفية . مصر
كتاب المدخل لابن الحاج . مصر
لباب الآداب لاسامة بن منقذ . مصر
لزوميات ابي العلاء المعري . طبعة بومباي
لسان العرب لابن منظور . بولاق
لغة العرب . بغداد . ج ٦ سنة ١٩٢٧ وج ٥ سنة ١٩٣٠
مختصر كتاب الفرق بين الفرق لعبد القادر البغدادي . مطبعة الهلال
المخصص في اللغة لابن سيده . بولاق
مراصد الاطلاع في اسماء الامكنة والبقاع . ليدن
مروج الذهب للمسعودي . جهامش نفح الطيب للمعقري . مصر

مسالك الابصار لشهاب الدين العمري . المجلد الاول طبع احمد زكي باشا . مصر .
مطبعة الدار

مسالك الممالك للاصطخري . ليدن
معجم البلدان لياقوت الرومي . طبعة ليبسيك
معجم البلدان لياقوت الرومي . مطبعة السعادة . مصر
معجم ما استعجم للبكري . طبعة وستنفلد
مقدمة ابن خلدون . بولاق

النجوم الزاهرة لابن تغري بردي . ليدن
نشوار المحاضرة للقاضي التنوخي . الجزء الاول . مطبعة هندية مصر
نفح الطيب للمقري . مصر ، المطبعة الازهرية
نكت الحميان في نكت الحميان للصفدي . مصر
نهاية الارب في فنون العرب لشهاب الدين النويري . طبعة الدار
النهاية في غريب الحديث والاثر لابن الاثير . مصر
وفيات الاعيان لابن خلكان . بولاق

تيمة الدهر للثعالي . طبعة دمشق
تيمة الدهر للثعالي . طبعة مصر

- G. Affagart, *Relation de Terre Sainte*. Paris, 1902
Henri de Beauvau, *Relation Journalière de voyage du Levant*. Nancy, 1619
P. Besson, *La Syrie et la Terre Sainte au XVII^e siècle*. Paris, 1862
J. Ebersolt, *Constantinople Byzantine et les voyageurs du Levant*. Paris.
B. T. A. Evetts, *The Churches and monasteries of Egypt*. Oxford, 1895
W. Heyd, *Histoire du Commerce du Levant*. Leipzig, 1885-1886
M^{me} B. de Khitrowo, *Itinéraires Russes en Orient*. Genève, 1889
H. Maundrell, *Voyage d'Alep à Jérusalem*. Paris, 1706
Carlier de Pinon, *Relation de voyage en Orient*. Paris, 1920
Fr. Eugène Roger, *La Terre Sainte*. Paris, 1664
P. Vansleb, *Nouvelle Relation de journal d'un voyage fait en Egypte en 1672-1673*. Paris, 1677

المخطوطات

برق الشام . خزانة جامعة ليدن 1466 Arabe (مختصر من كتاب الاعلاق الخطيرة لابن
شداد)

بغية الطلب في تاريخ حلب لابن العديم . خزانه بريتيش موزيوم Add. 23354
بيان ما يلزم اهل الذمة فعله ليقع التمييز بينهم وبين المسلمين وغير ذلك . لابي يعلى محمد
ابن الحسين بن محمد بن الفراء . في خزانتي .

تبشير الشراب لابن المعتز . خزانه باريس ٣٢٩٩
تاريخ بغداد لابن النجار . » » ٢١٣١
تاريخ الاسلام للذهبي . خزانه اكسفورد Laud. Or. 286
تاريخ البدر المعيني . خزانه بريتيش موزيوم Add. 22360
تاريخ صلاح الدين الصفدي (الجزء الرابع) رقم ١٢١٦ المكتبة الاحمدية بحلب
تاريخ ميفارقين لابن الازرق الفارقي . بريتيش موزيوم Or. 5803
التذكرة الحمدونية . باريس ٣٣٣٤

الجامع المختصر لابن الساعي . الخزانة التيمورية

خريدة القصر للاماد الكاتب . باريس ٣٣٣٨

الدر الملتقط من كل بحر وسفط . بريتيش موزيوم Add. 19408

دستور المنجمين . باريس ٥٩٦٨

ديوان ابن المعتز . رواية الصولي . باريس ٣٠٨٧

ديوان ابي نواس رواية الاصبهاني . باريس ٢٨٣١-٢٨٣٠-٢٨٢٩

ديوان ابي نواس رواية الاصبهاني . خزانه الفاتيكان ٤٥٦

ديوان البحري . باريس ٣٠٨٦

ديوان التلعفري . خزانه الفاتيكان ٣٦٠

ديوان السري الرفاء . باريس ٣٠٩٨

ديوان الامير تميم بن المعز لدين الله الفاطمي . ليدن Arabe 2038

ديوان المعاني لابي هلال العسكري . بريتيش موزيوم Add. 23443

ذخائر العصر في تراجم نبلاء العصر لابن طولون الصالح . الخزانة التيمورية رقم ١٢٢٢

ذيل ابن قاضي شهبة . باريس ١٥٩٨

راحة الارواح في الحشيشة والراح . لتقي الدين البدر . باريس ٣٥٤٤

روض الآداب لاحمد بن الحجازي . بريتيش موزيوم Or. 3843

زبدة الخلب في تاريخ حلب . باريس رقم ١٦٦٦

السلوك لمعرفة دول الملوك للمقريزي . باريس ١٧٢٧

سيرة احمد بن طولون للباوي . دار الكتب الاهلية الظاهرية . دمشق ٢٤٢

سير البطارقة الاقباط . باريس ٣٠٢

شفاء القلوب في مناقب بني ايوب . برتيش موزيوم Or. 7311
الضوء اللامع للسخاوي . الخزانة التيمورية

عيون التواريخ لابن شاكر الكتبي . الخزانة التيمورية
» » » خزانة باريس ٧٣٥
» » » الخزانة الظاهرية ٤٩

قطب السرور في اوصاف الخمور للرفيق النديم . برتيش موزيوم Or. 3628

كتاب الديارات للشابشي . خزانة برلين We. 1100 ٨٣٢١
كتاب الطبخ واصلاح الاغذية المأكولات لابي محمد المظفر بن نصر الوراق . اكسفر
Huntl. 187

كتاب من لا يحضره الفقيه . الخزانة المملووية رقم ١٧٠٣

مجموع من القوانين البيعية . برتيش موزيوم Or. 1331
مجموع فصول دينية للبطريك مكاريوس (الزعيم الحلبي) . برتيش موزيوم Add. 9965
مختار من كتاب الالهو والملاهي لابن خرداذبه . في خزانتي .

مرآة الزمان لسبط ابن الجوزي . برتيش موزيوم Or. 4619
مسالك الابصار لشهاب الدين العمري . جزء في المغنين والمغنيات . باريس ٥٨٧٠
المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي لابن تغري بردي . الخزانة التيمورية

ترجمة التأمل ومرشد المتأهل لجلال الدين السيوطي . برتيش موزيوم Or. 4640
النهج السديد للمفضل بن ابي الفضائل . باريس ٤٥٢٤
نواذر الاشراف في مكارم الاخلاق . الخزانة المملووية ١٦٩٣

الوافي بالوفيات للصالح الصفدي . برتيش موزيوم Add. 23358

اصلاح اغلاط الطبع

الصفحة	السطر	خطأ	صوابه
٣٩	٢٥	وقبله قال الحسن بن هانئ يعني ابا حنيفة والشافعي	وقبله قال الحسن بن هانئ يعني ابا حنيفة والشافعي. وفي رواية ان الغائل هو ابن الرومي :
٤١	٢٧ حاشية ٤	للثرواني	للشرواني
٤٢	٢١	بطيرنا باذ	بطيرنا باذ
٤٧	٨	الابقال	الاتقال
٥٩	١٧	حدران	جدران
٦٠	٧	سريان	مديان
٦٢	٢٠	بطيرنا باذ	بطيرنا باذ
٦٣	٢	اشموني	اشموني
٦٨	١٨	يموت	يموت
٧٨	١٣	ومنى	ومن
٨٠	٢٧ حاشية ٢	ارشاد الاديب	ارشاد الاريب
٨٧	١١	العماس	العماس
٨٩	١١	تلحين	تلحين
٩٨	٢٢ حاشية ١	F. Besson	P. Besson
١٠١	٨	تأتي	يأتي
١١٢	٢٢ حاشية ١	الفرق بين الفرق	مختصر الفرق بين الفرق

فهرس الفصول

الصفحة	
٣	المقدمة
٩	الدير والعمر
١٣	تخطيط الاديوار وتقدير ابنيتهما وزينتهما
١٩	القلالي والأكبراح
٢٣	القائم في الديارات
٢٤	اديوار النساء
٢٨	الاديوار التي كان يترها الخلفاء والملوك والامراء ووجوه الدولة
٣٢	مزروعات الاديوار والقلالي
٣٤	الحمر النصرانية
٤٤	التحايا
٥٠	الزعران
٥٨	دور الضيافة
٦٢	حانات الديارات
٧٠	تغزل الشعراء بغزلان الديارات، واحتيال الزوار لمناذمتهم والشرب على وجوههم
٧٨	الامور والاعاجيب في الحانات وملحقات الاديوار
٨٤	التردد الى الكنائس والاديوار للنظر الى غلمان النصارى ونسائهم
٨٨	الشرب والقناء على نعم الرهبان وضرب النواقيس
٩٠	النواقيس والاجراس في الاديوار والكنائس
٩٩	الذبور والاستشفاء في الديارات
١٠٣	لباس الرهبان والراهبات
١٠٥	التاج او اكليل الشعر
١٠٧	وصف الرهبان بالعبادة والتقوى والعلم والحكمة
١٠٩	ليلة الماشوش
١١٣	خراج الاديوار وجزية الرهبان
١١٨	الالفاظ المولدة المشروحة في المتن والخواشي
١١٩	الاديوار والاعمار والقباب والقلالي والكنائس التي تقى بها الشعراء في خمرياهم
١٢٢	الشعراء الذين استشهد باياتهم وقصائدهم في هذا الكتاب
١٢٤	المطبوعات والمخطوطات التي استشهد بها او استند اليها في هذا الكتاب: المطبوعات
١٢٦	المخطوطات
١٢٩	اغلاط الطبع
١٣٠	فهرس فصول الكتاب

SOMMAIRE

Introduction.	3
Les termes synonymes : « Dair » et « 'Omr », ou couvent.	9
Topographie et superficie des couvents.	13
Les « Cellules » et les « Kirh ».	19
Le « Qā'im », sorte d'ermitage.	23
Couvents de femmes.	24
Les couvents, lieux de plaisance des califes, des rois et des princes.	28
Productions agricoles des couvents.	32
Le vin « chrétien ».	34
Fruits et fleurs pour l'entretien du cabaret.	44
Le Safran.	50
Les chambres d'hôtes.	58
Les cabarets des couvents.	62
Poésie érotique et bachique.	70
De quelques mœurs de cabarets.	78
But peu religieux de la visite des Églises et couvents par les Musulmans.	84
Le chant bachique accompagné du naqūs et des psalmodies des moines.	88
Naqūs (simandre) et cloches dans les couvents et les églises.	90
Vœux et ex-votos.	99
Habillement des moines et des religieuses.	103
La tonsure.	105
Piété, science et sagesse des moines.	107
La nuit « al-Māchūch ».	109
Impôts et tribut.	113
Tables.	118

H. ZAYAT

**LES COUVENTS CHRÉTIENS
EN TERRE D'ISLAM**

Extrait du Machriq

IMPRIMERIE CATHOLIQUE
Beyrouth
1938